توفيق فياض

الشارع الأصفر

مجموعة قصص

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

facebook.com/the.boooks

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

توفيق فياض

الشارع الأصفر

مجموعة قصص

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

facebook.com/the.Boooks

بتهون يا خضره بتهون ...

أيوب مات وطاب يا خضره !...

وما بعد الشدة إلا الفرج ...

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

الطبعة الاولى ـ ١٩٦٨ الناصرة
الطبعة الثانية ـ ١٩٧٠ بيروت
الطبعة الثالثة ـ ١٩٧٨ ـ بيروت

facebook.com/the.Boooks

هذه المجموعة

في مجموعة توفيق فياض القصصية « الشارع الأصفر » يتكوم
نسان الفلسطيني تكوماً جريحاً حول ارضه . يدخل في جسدها
اوياً قروحها ، ومتشبثاً بها بنضالية ثورية مليئة بالعنف والتحدي .
، لا يجد نقطة ارتكازه خارج الأرض فهي المنطلق والهدف في آن .
ذا كان الشعر الفلسطيني المعاصر ، لا سيا شعر الأرض المحتلة ،
كون حول الأرض ، ويرسم اطاراته في حدود علاقة الانسان بها ،
ن هم توفيق فياض هو تحويل الانسان الى جزء من هذه الأرض
ويل الأرض الى امتداد للانسان . فالحدود تتساقط . وهاجس
اومة ينصب على التشبث بالبقاء داخل الأرض المحتلة بالرغم من
داوية الأفق ، وصعوبة فتح كوى في داخله من أجل الوصول الى
مس والحرية .

لقد استطاعت القصة الفلسطينية ، ان تكشف ارضها الغنية
فكرية الخاصة بها . وهي بذلك تشكل مساهمة جادة في اغناء
دب العربي المعاصر بالكثير من الأبعاد التي تميز علاقة الانسان
لسطيني بأرضه فلقد استطاع غسان كنفاني ان يصل الى رصد
قة الانسان بالموت ، عبر تحويله للموت من مجرد حدث فردي او
عي ، الى فعل تاريخي تتحدد اطرافه عبر علاقة الانسان بالأرض

facebook.com/the.Boooks

وعبر ممارسته النضالية ومسيرته نحو هذه الأرض . كذلك استطاع اميل حبيبي ان يكشف علاقة الفلسطيني بوطنه ، عبر اكتشافه للعلاقات الانسانية الحميمة ، لليوميات والجزئيات التي تندرج في كل نضالي يرفع صوت الصمود والقتال ويمجد الانسان . ويأتي صوت توفيق فياض . انه صوت يكتشف تقنية العمل الابداعي من خلال العملية الفنية نفسها ، ويكتشف الانسان من خلال اطار القمع ورد الفعل تجاه القمع حيث يصير الانسان ، نشيداً قروياً ينحدر في السهول ويصعد الجبال ، حاملا علامة فلسطينية في جراحه وفي اصراره على الصمود .

تتمحور مجموعة الشارع الأصفر حول ثلاثة محاور :

١ ـ القمع الاسرائيلي ونقاط تمفصل المقاومة الشعبية .

٢ ـ الأرض وعلاقة الانسان بها .

٣ ـ البعد الانساني للفعل التاريخي .

هذه المحاور الثلاثة تندمج داخل العمل الفني . وتأخذ لنفسها اطاراً واحداً هو الأرض الفلسطينية وضرورة البقاء فيها .

١ ـ القمع الاسرائيلي ونقاط تمفصل المقاومة الشعبية :

لعل قصة « الشارع الأصفر » وهي اولى قصص المجموعة تشكل وثيقة اتهام كاملة لأشكال القمع الوحشي الذي يمارس ضد عرب الأرض المحتلة . وتوفيق فياض يضع نفسه في حيفا « في الغيتو العربي في حيفا » حيث يصل القمع الى درجة جنونية . فالشرطة التي تعتقل امين سعد في تظاهرة « نظمها شلة من الزعران العرب » تمارس

facebook.com/the.Boooks

معه أبشع انواع التنكيل والبطش والارهاب . الانسان يتحـول الى خرقة تتكوم في بئر عميقة لا يصلها شيء بالحياة . والسلطة تقعمه في حياته الشخصية عبر الضغط المادي على خطيبته وداد كي تتركه . ان ثقل الموضوع كله ينصب على ناحيتين : من **جهة اولى** هناك الوجهاء العرب في حيفا الذين باعوه وباعوا أنفسهم للمحتل . ومـن **جهـة اخرى** هناك ضراوة القمع الـذي يتعـرض له المناضـل في الأرض المحتلة . وفياض حين يحاول تصوير الجانب الأول من الموضوع فان بطله امين سعد يكتفي بالتقيؤ على المارة من شرفة منزله . او هو يقوم باشعال النار حيث يرقص وجهاء العرب ليلة رأس السنة . اما حين تتعرض ريشته للجانب الثاني من الموضوع ، فان عنف القمع يصل به الى وصفه بشكل سوريالي « قبل لحظات معدودة فقط ، كان يعلق من كعبيه في حانوت قصاب وسط سوق عكا ... وقد شرع القصاب في تقطيع اوصاله وهو لا يزال حياً ، دون ان يستطيع الكلام ، كان ينظر اليه وهو يقطع يديه على الجذع ، ويضع قطعها على الطاولة ! ثم ما لبث ان قطع رأسه ووضعه الى جانب يديه !! ... » القمع يصل حافة الجنون وتصويره بشكل كلاسيكي قد يوقع الفنان في تبسيط الموضوع او في التقليل من أثره . من هنا يقفز الكاتـب الى الـوصف غـير الواقعي ، ليصور واقعاً معاشاً . فسوريالية هذا المقطع ، ـ الغرق في كابوس مرعب ـ هو واقع يومي يعيشه الانسان العربي المسحوق تحت احذية الغزاة . لكن القصة لا تتوقف عند حدود وصف الواقع ، انها تبحث لنفسها عن المخرج . وهنالك بالفعل مخرج سهل الهجرة « انك

facebook.com/the.Boooks

تعيش هنا في قبر ! شعبك كله هنا يعيش في قبر ، مظلم ، قاتم ! وطنك هذا الذي لك ، وليس لك ، لماذا لا تهجره ؟ لماذا ! ؟ » جواب امين سعد على هذا التساؤل يأخذه من اطفال شعبه من اغانيهم : « لأني اذا هجرتك يوماً تهجرني روحي واذا نسيتك ينساني الفرح » .

اما اليأس من النضال ، والانـزواء خارج حلبـة القتـال ضد المحتل ، فان اصوات المتظاهرين وهتافاتهم تصير حركة فعل تاريخي تخرج الانسان من يأسه الفردي ، وتحيله الى لحن في اغنية نضـال جماعية .

اذا كان القمع الاسرائيلي يظهر في قصة « الشارع الأصفر » واضحاً فانه في بقية قصص المجموعة ، يصبح رمزاً يفتـك بالأرض نفسها . ففي قصة « الراعي حمدان » يتحـول المحتـل الى ذئـاب جائعة ، تلتهم الأرض والأغنام التي ترعى عليها ، وهو في قصته « أم الخير » يصبح حية سامة تقوم بعملية قتل جماعية لعائلة بكاملها وتحيل اهالي القرية الى جموع من النازحين هرباً من الداء الذي ينبت قروحاً في جسد ام الخير ، وهو في قصة « ليلة القدر » يتحول الى مرض يفتك بعيون الصبية الجميلة العينين . وهو في قصة « الكلب سمور » جندي انكليزي او صهيوني يفتك بأهالي القرى . القمع هو الكابوس الذي تعيش مجموعة « الشارع الأصفر » في ظلاله . وهذا القمع يتمفصل حول جسد الأرض . حول القرية الفلسطينية . انه السرطان الذي يدخل جسد القرية ولا يستطيع احد مقاومته . وحين يأخـذ القمـع شكلا مدينياً « حيفا » فانه يصبح في قسوته قمعاً لا معقولا . بفصل

facebook.com/the.Boooks

الرأس عن الجسد ، يبيع الأعضاء الأخرى في حانوت قصاب .

غير ان الرد على هذا القمع يأخذ نقطتي ارتكاز :

أ ـ تعلق الانسان بأرضه . هذا التعلق الذي يصل الى حدود بقاء الانسان وحيداً امام قروح ام الخير التي يتحول جسدها الى شجرة تشفي قروح الناس الذين بقوا معها الى النهاية .

ب ـ النهر الجماهيري الهادر الذي يغتسل فيه المثقفون من آثار سياط الجلادين على اجسادهم . فالقمع يولد اليأس الى حين ، ولكن الحركة الجماهيرية لا تتوقف ، وهي في سيرها نحو أهدافها ، تستطيع ان تداوي الجراح الفردية التي تظهر على اجساد المناضلين .

٢ ـ الأرض وعلاقة الانسان بها :

اذا كان الأدب الفلسطيني يحاول ان يرسم اطاراته حول الأرض الفلسطينية نفسها . فالهجرة الجماعية ، تجعل من العودة الى تراب الوطن حلمها اليومي ووقود نضالها الرئيسي ، كما ان الأقلية العربية التي بقيت داخل جدران السجن الاسرائيلي ، لا تجد مبرر وجودها وسط الظلام الذي يحيط بها سوى مزيد من التعلق بالأرض . مزيد من الالتصاق بها والذوبان في احشائها .

فحمدان الراعي الذي تحيط الذئاب بأغنامه من كل ناحية وتفتك بها ، يرفض ان يهاجر مع جموع ابناء القرية الذين فضلوا الرحيل « قلت لك يا ناجي ، بطلعش من هالبلد ، لو بفطس بزقاقاتها وبلقاش مين يدفني ! حمدان قال كلمته وبرجعش فيها ... بدك تشرق

facebook.com/the.Boooks

يا نذل شرق ، اما حمدان ، درب النذال ما هيش دربه ، وعمره ما نقل فوقها قدم . براسك يا ناجي هالموال غنيه ! بيجيك يوم يا ناجي، توكل ايديك فيه ندامة ! مية الغربة عشاربها حنظل يا ناجي .
الأخضر عالغنم عليق » . هذا الاصرار القروي ، الرعوي
في الأرض ، ترافقه عامية فلسطينية . بسيطة . فالفلاح
المعادلات الحسابية . انه مقتنع بأرضه حتى لو يبيع فرسه
فالفرس تلد مهراً . والتفاؤل والاصرار على الصمود يأتي من
الطبيعة نفسها . الطبيعة قادرة على البقاء وعلى التجدد . الفرس
مهراً رغم ان الأرض سرقت بأمر اداري ، فان الفرس تستطيع ان تكنشف بقعة ارض عليها تقف وتستمد الحياة .

لقد استطاع فياض في قصة « ام الخير » ان يحول الرمز الى فعل ايمان بالمستقبل . فالحية التي دست السم في اللبن وقتلت عائلة « أم الخير » وملأت جسدها بالقروح ، هذه الحية استطاعت ان تجبر أهل القرية الهرب الى الحقول والسكن في الخيام . لكن حسن الذي أحب أم الخير عندما كان يافعاً وبقي مخلصاً لحبه رغم مرور السنين الطوال . حسن بقي مع ام الخير ومع قروحها التي تنقل العدوى الى جسده . بقي امام الجروح حتى ماتت ام الخير . لكنها فعلياً لم تمت . تحولت الى جذع يرويه حسن من قروحه الدامية « وفي صباح اليوم التالي ، كان برعمان أخضران يتفتحان حيث كان الوشمان على غمازتيها ، وقد إخذا يكبران يوماً بعد يوم ويتفرعان ، ومن اطرافهما كانت تسقط عند كل صباح دمعتان ، على قروح حسن التي اقعدته تحتها ، فتشفي

facebook.com/the.Boooks

عند كل صباح قرحتان » . هنا تتحول علاقة الانسان بالأرض الى علاقة صوفية ، علاقة الدخـول الى الجـراح ومعانقتهـا والبقـاء في داخلها . فأم الخير ستتحول الى شجرة خضراء الغصون ، اذا بقي الانسان متمسكاً بها يسقيها صموده واصراره .

اما في قصة « الكلب سمور » فان الارتباط النضـالي بالأرض يصبح هاجس الكاتب الرئيسي ، فالتاريخ النضالي الطويل الـذي صنعه الشعب الفلسطيني في معاركه ضد المحتلين الانـكليز ثم ضد الغزاة الصهاينة ، ينتقل الى الكلب سمور الذي يكلمه الكاتب وكأنه انسلن يناضل من أجل قضية يعرفها جيداً . فالكلب يتعود على محاربة الجنود الانكليز ، ثم ينتقل الى محاربة الجيوش العربية التي دخلـت فلسطين سنة ١٩٤٨ دون ان تحارب . وحين يصل اهل القرية فان الكلب يتركهم ويعود الى البيت ليحرسه « لا حول ولا قوة الا بالله .. رجع سمور عالبلد يا قاسم . ورد قاسم بصوت كسير : ـ على الأقل رجع يموت في الدار يابا ... مش مثلنا ، نموت مهججين من الجـوع والعطش ، لا بيت ولا مأوى » .

في قصص هذه المجموعة ، يعلو صوت الأرض ، ليغطـي جميع الأصوات الأخرى . فصوت الانسان لا يصير مسموعاً ، الا اذا كان جزءاً من صوت الأرض . وقيمة الانسان لا تأتي الا من خلال تعلق رجليه بالأرض وانغراسها فيها . هذا الهاجس الدائم في قصص هذه المجموعة هو الذي يميزها فعلياً . لكن الأرض ليست واحة رومانسية يلتجىء اليها المحارب ساعة القيلولة . انها هي ساحة المعركة ، لأن

facebook.com/the.Boooks

المعركة تجري باسمها . من هنا ، ورغم الصوت الفلاحي الواضح الذي ينبع من هذه المجموعة ، فان توفيق فياض لا يسقط في الرومانسية . يحاذيها ، ويلتجيء الى الرموز التي تستطيع ان تحمل نوازع شعبه وآماله ومعاركه النضالية .

٣ ـ البعد الانساني للفعل التاريخي :

في قصة « ليلة القدر » يتوحد البعد الانساني بالفعل التاريخي بشكل مذهل . فالنضال ليس مجرد رفع شعارات سياسية او تعليق شامل بالأرض انه بحث عن الانسان من خلال النضال والأرض . فالأرض تكشف في اعماقها عن الانسان الرابض هناك . ففي ليلة القدر سنية ابنة السابعة عشرة تبحث عن نور عينيها بيديها . فهي فقدت البصر رغم جمال عينيها ولا تزال منذ سبعة عشر عاماً تنتظر ان يرد النور الى عينيها بقدرة ما . لكنها تكتشف من خلال ليل الانتظار الطويل ان لا شيء يرد لها بصرها سوى نضالها هي : « ما عدليش عالصبر يا ستي ... وان ما فرجتها انا عحالي مش رح الله يفرجها » . هكذا تخاطب سنية جدتها التي تدعوها الى انتظار الفرج وتخرج الى الطريق باحثة عن الضوء .

في هذه القصة يصل الرمز الى غايته . فاذا كان الرمز واقعية تسهل اقامة العلاقات المعقدة بينها ، فان قصة ليلة القدر تصل الى هذه الرؤية النافذة . فسنية اليوم أصبح عمرها خمسة وعشرين عاماً . لكنها لا تنتظر . انها تقاتل في الشارع في سبيل عينيها ، في سبيل جراح أم الخير ودماء امين سعد المنثورة على طرقات حيفا .

facebook.com/the.Boooks

قصص توفيق فياض من خلال ابعادها الثلاثة ، تحاول الكشف عن العمق الانساني ، عن التوق الى الجدية في علاقة الانسان الصراعية بالحياة . من هنا فجميع ابطاله الرمزيين يكشفون في ذواتهم عن انسان يتطلع بحدة الى الخلاص . وفياض يتوجه الى وجدان جماعي . الى الوجدان الفلسطيني المناضل . من هنا فشخصياته فلاحية . وحين يصل الى البرجوازية فانه يصور فسادها وسقوطها امام ارجل المحتل .

الفعل التاريخي الذي تدعو اليه هذه المجموعة هو فعل انساني في الأساس . فالتكوم حول الأرض الفلسطينية لا يجد معناه الحقيقي بمعزل عن الانسان الفلسطيني الذي يصنع هذه الأرض بجراحه وعرقه . هكذا لا يسقط فياض في التعليمية والمباشرة . انه يبحث عن الانسان فيما هو يبحث عن الأرض ، وصوت الانسان يأتي من جراح أم الخير وتأوهات حمدان الراعي ومحبة قاسم للكلب ودخول امين سعد في البحر الجماهيري الذي يصير وقع اقدامه على الأرض نشيداً لهذه الأرض .

انّ الصوت الفلسطيني القادم الينا من الأرض المحتلة في هذه المجموعة القصصية ، هو صوت ناضج فينا . فالقضية رغم مباشرتها وحرارتها لا تحجب الجهد الابداعي الذي تبذله ريشة الكاتب . فتعدد الأصوات داخل القصة الواحدة ، والقدرة على ولوج اللاواقعية دون الوقوع أسير النظرة الأحادية للأمور ، بمعنى دون الوقوع في متاهة اعادة ترتيب الأمور بشكل غير واقعي ، وبالتالي الابتعاد عن

facebook.com/the.Boooks

الأرضية التي عليها يقف العمل الفني الثوري . ثم بالأخص القدرة على الدخول في العالم الفلاحي دون الوقوع في الرومانسية الجاهزة التي تستطيع ان تقضي على العمل الفني في مهده . كل هذه المؤثرات تدلنا على الطاقات الكامنة خلف القصة القصيرة التي لا تستنفد . فاذا كانت حياتنا العربية لا تزال . في مختلف أبعادها الثقافية والسياسية والاجتماعية . أسيرة عدم القدرة على التحرك الثوري الجذري بمعنى عدم القدرة على اعادة فهم تراثنا الثقافي ورسم الأبعاد السياسية والفكرية للحركة النضالية الواقعية في حركتنا الثورية العربية . فان القصة القصيرة قادرة عبر ايجازها والتقاطها للجزئيات . ان تطل على مشارف كليات حياتنا النضالية العربية دون الوقوع اسيرة التعميمات .

ان شهادة « الشارع الأصفر » شهادة مليئة بالغنى والدلالات . وتوفيق فياض استطاع بتجربة فنية متواضعة ان ينقلنا الى أعماق الجرح الفلسطيني . الى اعماق وجدان الذين بقوا في الغيتو العربي يقاتلون ويموتون .

الياس خوري

شؤون فلسطينية ، العدد ٢٤

facebook.com/the.Boooks

الشارع الأصفر

وقف في شرفة الدور الثالث المعفنة . تمطت نظراتـــه المتثائبة على عيون الشبابيك الناعسة ، ثم سقطت متمرغة في محاح الأضواء السائل فوق شارع الوادي . شارع بأكمله يغص بالمحاح المقرف ! فرك عينيه . خيل اليه انهما تغشيان بهذا السائل الأصفر .

وقعت نظراته على اعلان كبير في الطرف المقابل ، عيد رأس السنة « حفلة ساهرة كبرى ، وحتى نور الصباح » بخط كبير مزركش . اعلانات مصلوبـة في كل زاوية من الحي ؛ المدينة المغلقة ! مشهد رائع . الجيتو المطعون يرقص حتى الصباح !! سنة تمر وسنة تأتي والجيتو لا يزال مطعوناً ؛ لا نار تطهره . على الطاعون يحسن الرقص . حين يغزو الطاعون مدينة ، يثور عليه ساكنوها ويشعلون النار فيه . أما بعض سكان هذا الحي ، فانهم يثورون عليه بالرقص! فلسفة غريبة ، والأغرب منها هؤلاء الناس الذين أصبحو يعتنقونها — والذين يطفئون كل نار يشعلها أي ممن لا يعتنقون فلسفتهم في الثورة

facebook.com/the.Boooks

على الطاعون. هؤلاء هم يمرون بجماعاتهم المثرثرة في أسفل الشارع تحت ناظريه. ضحكاتهم المنمقة المنغمة، تتصاعد اليه باهتة رخيصة.

شعر برغبة ملحة في التقيؤ. هذه الأقزام الملتصقة بالرصيف. هذه الجماجم العائمة فوق الزفت والمحاح، تثير التقزز في معدته المقروحة! وضع اصبعه في حلقه. أجل هكذا، فوق الجماجم المتمرغة في الزفت تماماً. رأس امرأة ولا شك — هذه الرأس الغائرة بين أكتافها، لم تخلق من أجل السبري فقط، أو من أجل حمل الاقراط اللعوبة البراقة. هه! ضربة مُحكمة. فوق الرأس تماماً!

« إرد يحملك »! تسلق الفراغ اليه صوت لزج. لمعت في الحضيض بقعة صفراء باهتة؛ تحدق في السماء المبشومة. الجمجمة تتقلب فوق الزفت الأصفر — لا بد وأنه أديم الوجه ذلك؟ غابة في الابـــداع؟ أحمر الشفاه المندى باخراج فمه! وضع اصبعه في حلقه، ضربة أخرى محكمة. يُدفنان!!

« وغد » جأر مرافقها. المسخ الملتصق بالمحاح يغضب. هه.. هه! المسخ يقفز فوق الشارع مبتعداً عن تقيؤ السماء، والأوغـــاد أمثاله. ركلة بديعة، ها.. ها.. ها! الكرة تتدحرج فوق جثة الأسفلت. ليضحك الآن! عام بأكمله لم تعل شفتيه ابتسامة! إذن فليضحك. ومن أعلى هذه المرة!! ومن الأقزام. ضحك حقيقي. ان ما فعله يدعو ولا شك إلى الضحك. ضحك الأوغاد لا يمكن أن يكون غير حقيقي — ضحك لا تفهم الأقزام كنه. فلسفة خاصة بالأوغاد وحدهم،

facebook.com/the.Boooks

وهم وحدهم يفهمون هذه الفلسفة حصيلتهم من الدنيا . إذن فايضحك ، ورغم تلك الرائحة النتنة التي تفوح من فمه – انها جزء من هذه الفلسفة الخاصة التي يتلقاها الأوغاد في ظلام السجون ، والتي لا يمكن اتقانها الا بعد أن تدمي القرحة معدة معتنقها . نعم ؛ وأخيراً فعل شيئاً ! مجرد ذلك كاف لأن يجعله يضحك يوماً كاملا .

مسح بظاهر يده صمغ القيء عن أطراف شفتيه . الجماجم غابت في تيار الزفت – ستتدحرج كلها ، وبعد قليل داخل « بستان الكرمة » . عيد رأس السنة – حفلة ساهرة كبرى ، وحتى نور الصباح ، بخط كبير مزركش ، ولاولئك الذين بطاعونهم يحسنون الرقص !! لقد أعد هو الآخر كل شيء لهذا الحفل الساهر – الفرصة التي سينتقم فيها لنفسه ، ولكل أولئك الذين لا يعرفون الرقص في الطاعون .. عيد رأس السنة !

تقدم من صندوق خشبي في الزاوية ، رزمة من الجرائد ، احتفظت له بها أمه ؛ حين كانت أوصاله تقطع لتصنع الجرائد اليومية . سلّ واحدة منها : عنوان كبير على الصفحة الأولى « شاب عربي من وادي النسناس يعتدي على شرطي..الشرطة تلقي القبض على المعتدي ، وتفرق شلة من الزعران العرب وتمنعهم من التظاهر » هـه ! المعتدي ! شلة من الزعران !! وبعد ، ليرى من هو هذا المعتدي ؛ بطل هذه الرواية . قصة مشوقة – ليقرأها مرة اخرى . جريدة اخرى – عنوان

facebook.com/the.Boooks

آخر كبير : « امين اسعد ، العربي الذي اعتدى على شرطي صباح امس ، يوقف لمدة خمسة عشر يوماً لمواصلة التحقيق ».. وما هي نتيجة التحقيق معك يا امـــين !؟ نتيجة التعذيب القانوني !؟ لماذا لا ترى جريدة اخرى،هذه الجرائد المأجورة؟ ما زال امامك متسع من الوقت لكي تذهب الى الحفلة الساهرة الكبرى ! هل كنت تحـــلم بان تكون بطل قصة ذات يوم تكتب عنها الصحف ، وتشغل حيزاً باكمله !؟ تابع اذن . اجل جريدة اخرى ، وفيها صورتك ايضاً ، وانت مكبل بالحديد . ممتد خطـــير .. « كشف التحقيق مع العربي من وادي النسناس انه أحد النشيطين في حركة معادية للدولة ... قد يقدم للمحاكمة بتهمة القيـــام باعمال تخل بالامن » .. هه ! ها .. ها !! الأمن !! أمين أسعد يقوم باعمال تخل بالأمن .. أمن الدولة !! ارخص التهم واضمنها لإيداعه السجن !! وبعد، ماذا بعد يا امـــين ؟ « المحكمة تقرر تمديد مدة توقيف امين اسعد بناء على طلب الشرطة » .. توقيف اداري .. لا احد يستطيع الاعتراض ؛ توقيف اداري ، وبكل بساطة ، ما لم تنته الشرطة من تعذيبه لا احد يستطيع الاعتراض ! وبعد ماذا بعد؟ الجريدة الاخيرة .. نهاية روايتك اجل ، النهاية . العنوان هذه المرة أكبر العناوين وأوجهـــا . « المحكمة المركزية في حيفا تحكم على المعتدي أمين اسعد لمدة سنة فقط ، نظراً لاوضاعه العائلية السيئة .

لمدة سنة فقط .. ونظراً لاوضاعه العائلية السيئة !! لمدة

facebook.com/the.Boooks

سنة فقط ! فقط !! لقد ارادوا له ذلك دائماً . بل ولجميع الرفاق . خلقوا الفرصة، وساعدهم اولئك الذين لا يحسنون غير الرقص ، وادعاء انهم وجهاء العرب في حيفا ..كلهم اصبحوا شرفاء ، كلهم مواطنون صالحون ، وكلهم يستنكرون مثل هذه المظاهرات التي لا يهدف المتظاهرون منها غير الشغب ، والمس في مواطنتهم الصالحة ، الكلاب ، لماذا لم يتملقوا السلطات اكثر واكثر ؟ لماذا لم يطالبوا بشنقه ، ما داموا قد طالبوا بسجنه ؟ حقى جيرانه يا للعنة ! اولئك الذين يعرفون حقيقة شقائه الذي يعيش فيه ! ويعرفون كل شيء عن مرض اخته الذي كان يضطره للعمل ليل نهار وفي كل شيء ، ليوفر لها ثمن العلاج ؛ حقى اولئك زيفت شهاداتهم امام المحققين ، ومن ثم أجبروا على الكذب امام المحكمة . لقد زاروه في سجنه عدة مرات ليكفروا عن اشتراكهم القسري في تلك الجريمة التي ارتكبت في حقه . لماذا لم يستدع هذا المجنون محامياً للدفاع عنه !؟لماذا !؟ومن الذي سيمول المحامي؟ أهو الذي يرقد في عفن السجن ، ام والده الذي سيق الى الموت مع العشرات من ابناء قريته عام ١٩٤٨ ؟ ام امهم التي رحلت بهم الى هذا الجيتو بعد هدم القرية كلها،لتطعمه واخوته من لحم أناملها المتفتت في ماء الغسيل القذر في البيوت ، ام اخته التي كانت تفوح من فراشها رائحة الموت ، ثم ماتت دون ان يراها . ام تراها الحركة التي ينتمي اليها ، تلك التي لا ينفكون عن مطاردتها ، وزج كل من يقع في قبضتهم من

facebook.com/the.Boooks

افرادها في السجن !؟ كما فعلوا به تماماً ؛ وبنفس الطريقة أو غيرها من الطرق المعدة .. وليساوموهم بعدها على حريتهم ! تماماً كما راحوا يساومونه على ترك الحركة مقابل الافراج عنه . لقد بصق في وجه المحقق عندها ، فدفع الثمن بسجنه داخل السجن ؛ أربع وعشرون ساعة في عفن الزنزانة وظلامها .

ـ ولكن الحركة لم تتعرف عليك حين أُدخلت السجن .. ولن تتعرف عليك داخله . ربما علمتك الزنزانة ذلك .

ـ لتكن أربعاً وعشرين سنة . ليس من أجل الحركة تظاهرت ، بل من اجل من تظاهرت الحركة كلها من اجلهم ، من أجل من تظاهرت المئات من أجلهم ! لتكن أربعاً وعشرين سنة .. لتكن حياتي كلها . لقد كانت حياتهم أثمن !

ـ اخرس ...

ـ في البدء كانوا مئات ، وكان والدي بينهم ...

ـ قلت لك اخرس .

ـ ومن ثم كانوا أربعين .. كان ثمنهم قرشاً واحداً .. أجل ، قرش واحد ! الانسانية كلها بقرش واحد ...

ـ اخرس يا وقح .. خذ ..

ـ ومن ثم كانوا خمسة .. زهرات خمس ، لم يدفع ثمنها ، حتى ولا قرش واحد !!

ـ الى الزنزانة ، أغرب عن وجهي ؛ بسرعة ، لا فائدة من الحديث معك ..

facebook.com/the.Boooks

– فلأدفع الثمن أنا ، الثمن الذي يليق بالزهور، لقد كانت زهوراً غالية . لا بد وأن تعرف ذلك .

حتى هذه الكلمات التي قذفها في وجـــه سجانه ، كادت تذوب وتتلاشى في عفن الزنزانة . أربـع وعشرون ساعة في الظلام والعفن ، كفيلة بان تفقد الانسان حتى ايمانه بانسانيته . لقد فكر في ذلك الصباح الذي كان يندفع فيه مع عشرات المتظاهرين في شوارع الجيتو الثا كل. تلك المدحلة البشرية الهائلة، التي كانت تدك الشوارع بكل ثقلها ؛ كانت تزحف وتزحف وسط الغاز العابق من قنابل الشرطة العسكرية . حتى المداحل البشرية في حاجة إلى ماء يزيد من فعل وطأتها فوق الاسفلت!! كان سور التروس والهراوات يتراجع أمام المدحلة ويندحر . والرفاق يتقدمون ويتقدمون .. كانت الشرطة العسكرية تجره بعيداً عنهم، وعيناه تتعلقان بالرفاق المتقدمين وتساير مسيرتهم إلى أن غاب عنهم ..

* * *

انطلقت صفارة الميناء معلنة العاشرة. تأمل بيدر الصحف على بلاط الغرفة بابتسامة ساخرة . خلع منامته وعباً رجليه الطويلتين في بنطاله متهيئاً للخروج . نظر إلى نفسه من خلال برص المرآة المعلقة فوق الحائط ببله ساكن . راعتـــه شدة شحوبه . هذه الليلة ، لا بد له أن يبدو بين الأقزام عملاقا ، كي يسهل عليه ذلك من سرعة الانتقام .

facebook.com/the.Boooks

وقف بباب « بستان الكرمة » يلف الحاضرين بنظراته الحادة ، ثم دخل متخطياً شلال الأضواء ، وهو ينفض عن سرته زئبق الأعين المتناثر عليه من كل صوب .

حبت على جانبي عنقه همهمة خافتة ، وحامت بعدها على أطراف أذنيه ..

ـ اليس هو ذلك الذي يجلس أمامنا ؟

ـ من ؟

ـ أمين أسعد !

ـ أمين أسعد !؟ أمين أسعد !! آه .. أمين أسعد .. هو والله . متى خرج من السجن ؟

ـ سمعت قبل شهر ، ولكني لم أره إلا الآن . يقولون انه خرج مريضا .

ـ مسكين، خسارة .. لم يكن الوحيد . لقد لعبوا نفس اللعبة مع عدد من رفاقه في الحركة .. ولكنهم لن يقهروهم ..

ـ قل لي ، هل تشرفت مرة بدخول السجن ؟

ـ كلا .. لماذا ؟

ـ أراك تتوق لنيله ، وتود أن أشاركك

ـ انه مجرم حديث ..

ـ ولكنه أغلى أنواع الحديث . دعنا نتحدث عما أتينا من أجله . ألم أقـــل لك ان جميع المتآمركين والمتفرنسين ،

facebook.com/the.Boooks

وبرفقة الجنس الناعم طبعاً ، سيكونون هنا الليلة .. هـــل تجيد الرقص ؟

ـ أجيده ، ولكن ما نفع ذلك ؟ ألا ترى كل واحدة ومعها بغل لا يعرف طوله من عرضه !

ـ ولكنهم عندما يسكرون يصبحون بلا طول بتاتا .. وعندها .. وعندها ..

وعندها أكون أنا بلا طول أيضاً .. يا أخي لا أستطيع أن أتجاهله ؛ لماذا أتينا نحن هنا ، واضح .. أما ماذا يفعل أمين أسعد هنا ، فهذا ما لا أستطيع فهمه ! ما الذي يجمعه بكل هذا العفن ؟ هل اشتروه ؟ .

ـ أما أنا ، فأرى انك لا تريد لكلينا أن نمضي هذا العيد على خير . فإما أن تدعنا من سيرته أو نفترق ..

ـ حسناً .. حسناً ؛ إنني سأرقص الليلة مع تلك الحلوة في الزاوية ، إذا ما ألهم الله رفيقها الليلة ونام سكراً ..

ـأما أنا ...

توقفت أرجل الهمهمة الشائكة على أذنيه . حبت غيرها على نحره تتسلق عنقه ..

ـ هيا بنا ننتقل إلى طاولة أبعد ..

ـ ولماذا ؟

ـ لا أشعر بالارتياح !

أزيز همهمة أخرى من خلفه قاطعت إصغاءه .

facebook.com/the.Boooks

– بابا ، أليست وداد تلك التي تجلس مع زوجهـــا في الزاوية .. مسكين أمين ..

انتفض أمين ، ناظراً حيث الزاوية المقابلة ، بينما استمرت الفتاة من خلفه في حديثها :

– يظهر انه لم يرهـا حتى الآن .. مسكين ! لم يبق له شيء ، حتى وداد تخلت عنه..بابا ؛ هل تسمح لي أن أراقصه إذا ما طلب إلي ؟

– ولماذا لا ؟ وهل ينقص أباك غير هذه الورطة ، « لولا أنك أحد الأعضاء في الحركة ، لما سمحت لك بمراقصته » . عال .. عال ؛ إنها أحسن هدية تقدمينها لأبيك في عيـــد رأس السنة !

كانت الموسيقى قد أخذت تعزف ألحانها الراقصة ، حين كانت نظرات أمين تتسمر على وداد ، التي أخذت تتشاغل عنه بالحديث مع زوجها . شعر برغبة ملحة في الرقص ، الا انه شعر بغربة عجيبة بين جمع الحاضرين ، هذا الجمع الذي لم يعد هم له غير الرقص ، فليكن همه أيضاً . أجل لماذا لا يكون همه هو الآخر إلا الرقص ؛ ولو لليـلة واحدة .. عيد رأس السنة !؟ حتى الرقص حرمه من أجلهم . أما الآن فعنـــده الوقت الكافي لذلك ، بل وأن يقضي عمره في الرقص .

دعك سيجارته في المنفضة ناهضاً . اتجه نحو وداد بخطوات

facebook.com/the.Boooks

رزينة مصممة . مد لها يده داعياً ..

– هل تسمح سيدتي ؟

شهقت نظراتها المتقعة على رفة بسمته الهادئة ، ثم نظرت إلى زوجها الذي كان ينظر إليه بحيرة غاضبة . ابتسم له أمين وهو يمسك بيدها ..

– سيدي بالطبع يسمح !

نهضت وداد تراقصه ، وهي لا تزال تنظر إلى زوجها بعدم حيلة ، وقد أخذته الدهشة. انغمرا في جمع الراقصين . نظرت في عينيه ..

– أمين .. الحمد لله على سلامتك .

ضحك

– الله يسلمك ..

– كيف حالك يا أمين ؟

– حالي ؟ انني أرقص .

تنهدت :

– امين ..

نظر في عينيها :

– أنك تلتصق بي بشدة .

ضغطها إلى صدره أكثر

– هكذا كنا نرقص « السلو »

– ولكن الامر الآن يختلف

facebook.com/the.Boooks

ـ ولذا اراقصك الليلة !

ـ الناس ينفضون من حولنا .. سنبقى في الحلبة وحدنا

ـ ليكن .. أمر الناس لم يعد يهمني ، الموجودون هنا على الأقل .

ـ أما أنا فأصبح يهمني .

ـ لست بحاجة لأن تذكريني بذلك . أنني أراه يجلس كالمعتوه. لن يتفوه بكلمة،ما دام ذلك يظهره بمظهر الجنتلمان! أنظري كيف ينافس كل واحد هنا الآخر ، ليكون جنتلمان أكثر . والنصر في هذا التنافس تحقق لزوجك بفضلي ..عندما أعيدك اليه سيشكرني بحرارة ، كما يليق به كجنتلمان !

ـ امين ، أنه زوجي

ضحك

ـ لم أشتمه !

تنهدت وهي تخفض رأسها .

ـ ليس ذنبه ، أنا التي أسأت اليك . لقد فعلت ذلك مكرهة . أنت تعرف .

ـ أجل أعرف ..

ـ لقد أنتهى العزف .. إلى اللقاء ...

شدها اليه مرة ثانية .

ـ لن تذهبي .. سنتم الرقص !!

ـ أمين ...

facebook.com/the.Boooks

– بسدوبلي .. كنت دائماً ثور صراع .. فلأكنه الليلة راقصاً . أجل راقصاً! حين كنت في الحركة، هزمت. سيطيب لي الرقص بجراحي .

– ولكن ...

– لن أنتهي .. هنا على الأقل لن أُهزم !

– اولي ..

أبعدها ، ثم لفّ خصرها بعنف .

– أجل هكذا ! كنت دائماً تجيدين البسدوبلي . اسبانية عريقة .. ثور حلبتك هذه الليلة أقوى .

– يا ويلي .. بقينا وحدنا !

– أنها أصول المصارعة !

– امين .. أرجوك، يكاد يغمى علي. أن زوجي يحن غضباً

– الثيران المخنثة لا تغضب .. ولا يستثيرها النفير .

أرتفع التصفيق الموقع مع الموسيقى ..

– اولي .. ترا را را را را رم

– الكل يصفقون لنا . لا بد وانهم يهزؤون بي .. الكلاب . لن يصرع الثور رغم جراحه ! حين يسجن الثور ، يحن شوقاً إلى الحلبة ، يكون أقوى .. أوللي .. فليصفقوا إذن !

– انهم لا يهزؤون .. انك بارع الرقص .

انفجر الجميع بالضحك. برقت عينا أمين غيظا . ثمة أصلع

facebook.com/the.Boooks

قام يراقص زوجته المترهلة، وهو يصفق بلثتيه الاصطناعيتين .

– أولي .. هوب

صفق الفكان المتعفنان أمام عينيه . ضغط بطنه مبتعداً عن وداد ، وهو يحصر قيأه في فمه !!

توقف في رجوعه عند براميل الغاز ، وهو لا يزال يمسح شدقيه بمنديله : ليضحكوا الان . لا بد لهذه الضحكات من أن تخرس ، وان تتحول إلى صراخ ، بينما يقف هو منتصباً وسط الحلبة وحيدا ، وهم يتفرقون من حوله وسط اللهب — أما هو فسيضحك بدوره ملء فمه ، بل وسيقهقه عاليا . عود ثقاب واحد ، يتحكم بسعادة عالم كامل ! عود ثقاب واحد ، وليطالب هؤلاء الوجهاء بسجنه . لن يعرفوا الفرح بعد الآن ، وحتى في عيد رأس السنة !!

– ترا را را را را رم .. اولي ..

ارتفع التصفيق . ابتسم . ابتسم عود الثقاب بين أنامله ..

زغردت صفارة الميناء معلنة الثانية عشر . دقت أجراس الكنائس ، وارتفعت صفارات السفن في الميناء تغمر حيفا . عام جديد . مشعلة كبيرة ، وأبواق نصر ترتفع حتى السماء . عام سعيد أيتها المدينة المطعونة عام سعيد يا حيفا !.

توقف أمين عند باب البيت الذي تسكنه أمه مع اخوته ، كان البيت معتما . لم يمـــر بهم عيد رأس السنة . شعر برغبة ملحة لرؤية أمه . كان عاماً قاسياً . انها تنام الآن ! من

facebook.com/the.Boooks

يدري ما يخبئه لها العام الجديد ؟ حتى مع أمه واخوته لم يعد يستطيع العيش . أصبح يضيق بكل شيء . في مثل هذا الوقت من العام السابق ، كان يرقد في العفن . كانت الأيام أعواماً طوالا !

وقف في الباب متأملا وجه أمه على ضوء المصباح الكهربائي الصغير ، ثم تفحص اخوته النائمين على الأرض ! كان صغيرهم بلا غطاء ، والبرد قارس ! تسلل إلى الداخل بهدوء ، وضع عليه غطاءه ، ثم أصلح غطـــاء الآخرين عائداً . وقف إلى جانب أمه ينظر إلى وجهها البائس . انحنى عليها برفق يقبلها. دمعت عيناه . كل عام وأنت بخير .. كل عام وكلكم بخير ..

دخل غرفته ، ثم ارتدى منامته وخرج إلى الشرفة. مشهد رائع ! كانت النار المندلعة من « بستان الكرمة » لا تزال تبعث الدفء في جوانب الجيتو ، وصفارات عربات الاطفاء توقظ الذين لم تمر بهم أعياد رأس السنة! عام كامل في السجن، بل كان أعواماً طوالا! لن يدعهم يعيشون بسلام ! لن تكون هناك أفراح بعد في عيد رأس السنة !!

* * *

كانت صفارة الميناء قد أعلنت الثانية عشرة ، من ظهر اليوم الثاني حين استيقظ أمين من نومه فزعاً . شعر بانه لا يستطيع الاتيان بأية حركة. كان يحدق في السقف ولسانه يتلعثم

facebook.com/the.Boooks

بغمغمات غير مفهومة ، تطلب الماء دون مجيب . قبل لحظات معدودة فقط ، كان يعلق من كعبيه في حانوت قصاب وسط سوق عكا .. وقـــد شرع القصاب في تقطيـع أوصاله وهو لا يزال حياً ، دون أن يستطيع الكلام ؛ كان ينظر إليه وهو يقطع يديه على الجذع ، ويضع قطعها على الطاولة ! ثم ما لبث ان قطع رأسه ووضعه إلى جانب يديه !! كانت عيناه لاتزالان مفتوحتين ، وعقله يعي كل مـــا يفعل به ؛ الا انه لم يستطيع الكلام ، فقد صكت أسنانه على لسانه ، وشلت فكاه عن الحركة ، وكان الدم يسيل من عنقه النـــافر بين كتفيه !! كان يراقب المارة بعينيه الجاحظتين ، عل أحداً يعترض على ذلك أو يدهش على الأقل ، إلا أن أحداً لم يعر ما يحدث اهتماماً ! كما لو كان أحد الأشياء المألوفة في حوانيت القصابين في هذه المدينة ! كان يتألم تحت ضربات منشة القصاب على رأسه ، وهو يطرد عنه الذباب المتراكم على أطراف فكيه وعينيه ! ولكن لسانه المشلول كاد يتحرر من كاشة أسنانه المطبقة عليه ويتكلم ، حين أخذ أحد الزبائن رأسه المقطوع بين يديه ، وراح يقلبه متفحصاً ، ثم وضعه في شقة الميزان وهو يساوم القصاب على ثمنه ، مما جعله يصرخ بأعلى صوته محتجاً على ذلك ، فاستيقظ !

ظل يحدق في السقف الذي كان يدور أمام ناظريه ، ثم ما لبث السقف ان استقر ، ولكنه كان هذه المرة في سجن

facebook.com/the.Boooks

عكا . لقد مكث فيه عدة ليـــال كان يشعر حلالها وكأنه لا يزال سجيناً منذ عهد الجزار !

كان يدخل عليه كل ليلة ثوران هائجان ، فيتركانه خرقة بالية في احدى زواياالسجن ، إلى أن وجد نفسه ذات صباح في مكان آخر ، أشد رهبة ؛ مع شخص آخر يقبع في ركن مظلم ، وهو ينظر إليه كالمعتوه على ضوء القمر المتسلل عبر حديد طاقة في أعلى الجدار ، ثم راح يزحف نحوه ، إلى أن جلس أمامه وهو لا يزال يحدق به ، بينما ظل أمين يلتصق بالجدار ، وقد تملكته قشعريرة قاتلة !!!

ـ هل جننت أنت الآخر .. ؟

قالها وهو يمد إليه يده يتحسسه . لم يفهم بادىء الأمر ما يرمي إليه ؛ إلا انه أدرك أخيراً انه في مستشفى المجانين ، ولا بد انهم قد حصلوا على تقرير طبي بانه مصاب في عقله !!

كاد يجن حقاً حين عرف ذلك ، ولا سيما حين نظر إلى حيث يشير رفيقه فرأى حبلاً طويلاً يتدلى من حديد الطاقة ..

ـ عليك أن تختاره ، أو الجنون ..

قالها ببأس متعب . لم تصدق عينا أمين ما تريان !

ـ دعني أنام .. أكاد أفقد عقلي !

ـ انك تدني منهم لحظة النصر عليك .

ـ مريـع .. شيء مريـع !!

ـ أعرف ذلك ، انه اليوم العشرون ، ربما أجن ، ولكني

facebook.com/the.Boooks

لن أنتحر .. مستحيل .

ـ وهل عذبوك كثيراً ؟

ـ لم أعد أشعر بشيء ! هل معك سيجارة ؟

ـ كلا . أكاد أجن من أجل واحدة .. لقد أخذوا ما كان في جيبي .

ـ لو انهم يعطونني سيجارة واحدة كل يوم .. كل اسبوع على الاقل ! انني ارتعش .. هذه الرطوبة القاتلة ..

ـ ولكن ما الذي فعلته أنت الاخر ؟

ـ هه .. هذا ما كنت اريد معرفته منك . ربما اعتقلت بعدي ..

فغر امين فاه وهو يقترب منه ، وراح يحدق في وجهه الشاحب ذاهلاً ..

ـ يا إلهي ! هل انت .. هل انت سليم واكد .. !؟

ـ أجل .. وانت ؟ انني لا أراك .

ـ امين اسعد ..

شهق

ـ امين اسعد ! الرفيق امين !؟

ـ أجل الرفيق امين .

ـ اللعنة عليهم . هل اعتقلوا غيرك من الرفاق ؟ .

ـ لا أدري .. لا بد !

ـ كن رجلا يا رفيق ؛ فربما عذبوك كثيراً كيف حال زوجتي وأبنائي ..؟

facebook.com/the.Boooks

صر المفتاح . زحف سليم الى الزاوية المقابلة حيث كان.علا شخيره . نعب الباب ، لمعت من فتحته عين بوم اعور ، راح ينقل نظراته البشعة في كل اركان الغرفة باحثاً عن فريسة . كشف بريقها عن سليم . أنشب البوم مخالبه في شعره ، ثم اقتاده نحو الخارج . نعب البوم .. غاب بريق عينيه .

بقي امـــين متسمراً في ركنه ، ونظره لا يفارق الحبل المتدلي من طاقة القمر المطلة عليه ، وقد استسلم لقشعريرة قاتلة قيدته في الزاوية ، دون أن يستطيـع حراكاً !

لم يدر ما الوقت حين ذبحه نعيب البوم . لمعت عينه في الظلام ! لم ينظر اليه هذه المرة ، تعلقت به نظراته وهو يتقدم نحو الحبل ! كان بألف جناح تنشر الصمت . عاصفة من الخفافيش ذات القرون القبيحة .. تجمدت نظراته على النظرات المحملقة به في الزاوية تحت طاقة القمر ! الحبل مشدود تجمدت ذاكرته على الرأس المحنية عليه !! .

* * *

حاول امين أن يرفع يده الى جبهته ، يمسح عنهـا طوفان العرق المتصبب منه ، ولكن اوصاله مقطعة ! فكيف يفعل ذلك ، ورأسه مفصولة عن جسمه ؟ ذلـك القصاب اللعين ! لقد كان ذلك حلماً ، فكيف لا يستطيـع تحريك أي عضو من أعضائه ؟ كل اعضائه منضدة على السرير ، دون أي رابط

facebook.com/the.Boooks

يربطها ؛ فماذا يفعل الآن ؟ حاول أن يصرخ ولكن اسنانه النافرة تطبق على لسانه ! وهذا الذي يطرق الباب دون انقطاع إنه لا يستطيع الرد عليه ! كيف يستطيع الرد عليه ؟ كيف يستطيع أن يشرح له ؟ انه لا يستطيع ذلك !؟

ـ أنا الرفيق احمد ، افتح يا أمين .. يا رفيق افتح ، هل تسمعني ؟ الرفاق ينتظرونك ..

هذا الشيطان ، كيف يفتح لك امين وهو مقطع الاوصال ذلك القصاب اللعين .. ولكن ما الذي تريدونه من امين بعد ؟ لقد مات امين ، ومنذ أمد بعيد ! امين مقطع الاوصال ، فلماذا لا تذهب الى رفاقك وتخبرهم أنه لن يتظاهر غداً معهم كلا ، لن يفعل ذلك ! تظاهروا اذا شئتم ، وحدكم ، أما امين فليس هناك من يتظاهر من أجله . دم الضحايا وخبز العاطلين عن العمل لم يعد يهمه . لقد دفع الثمن ! حق ولا من أجل اولئك الذين رآهم يدخلون عالم الصمت في العفن .. سليم واكد وغير سليم !! « إذا تفوهت بحرف واحد فسأسكتك إلى الأبد !! لقد انتحر سليم واكد.. شنق نفسه .. هل تسمع » ! لقد مات امين .. مات منذ أمد بعيد !!

ـ الشيطان وحده يعلم ما اصابه .. يا رفيق امين.. امين !

* * *

جلس على احد المقاعد الخشبية ، في حديقة بنوراما . حين

facebook.com/the.Boooks

خرج من البيت لم يكن يعرف أين يذهب . وجد نفسه تحت الأرض في محطة الترام الارضي . لو لم يطرده الحارس لقضى طيلة ليله في هبوط الادراج الكهربائية الصاعدة . كان يهبط ويهبط ، وهـــو لا يزال مكانه .. وحين صرخ به الحارس ، جرفه تيار الادراج المتصاعدة الى أعلى . لا بد لك من الصعود دائماً يا امين ، واذا حاولت الهبوط مرة ، فلا بـــد من ان يجرفك التيار المتصاعد إلى أعلى ، ككل الرفـاق .. الصعود إلى أعلى !

وحين نزل من الترام لم يكن يعرف أين يقضي وقته ! انها المرة الاولى منذ ان سجن تقوده رجلاه إلى الكرمل ، ومن ثم الى هذا المكان . بل وحتى قبل سجنه بعدة اشهر ، حين لم يعد باستطاعته لقاء وداد – على هذا المقعد كان أول لقاء له بها ، وعلى هذا المقعد بالذات كان آخر لقاء ! قالت له يومها إلى اللقاء ، ولكنها لم تعد ! لقد انتصروا عليها . كان لا بد لها من ان تهزم ، وان تستسلم لارادتهم . كان عليها ان تختار بينه وبين أخيها ، الذي راحوا يطاردونه في كل شيء ، بعد ان أطلعوه على علاقتها به ، وعلى ما التقطوه لها من صور معه حين كان يلقاها في الخفاء. تسللوا حتى إلى أعماق حياته الخاصة – الاشقياء – لكي يحاربوه بها ! وجاء اليه اخوها يرجوه ان يتركها ، بعد ان شرح له كل ما يسببه ذلك له من مشاكل ، وتهديد بطرده من وظيفته ، أو بإبتعاد عن الحركة اذا كان يريد

facebook.com/the.Boooks

التقدم لخطبتها . ولولا ما يربط اخاها به من صداقة قديمة ، لكان الشيطان وحده يعلم ما ستكون النتيجة !؟ قالت له وهو يراقصها امس : أنهـــا أرغمت على تركه . مسكينة وداد ! كانت تستطيع ان تقاوم وان تنتصر لو لم يكن الجوع احـــد حربة تصوب الى قلب العائلة كلها . كان لا بد لها من الهزيمة ! لقاء الامس أيقظ في قلبه حباً قديماً ، غاب عنه وانتسى !!

حلقت عيناه فوق غابة الاضواء من تحته، وقعت على سرو النور المتراقص في انعكاسه على صفحة الماء في الميناء. ثمة سعادة تنتظر الانسان في زاوية ما من العالم. كان مرة احد اطيار ذلك الحرش السحري . بعد ان تركته وداد ، اول مرة يقف فيها على سطح سفينة ، تلوح بمناديل داخونها المنفلتة مودعة . تمنى لو انه كان المودع ، فأخرج منديله وراح يلوح لكرنفال حيفا ! زادت دموع الدهر عندها دمعتين ! ضحكت ساعتها الأميرة من بلاد الشمال ، وهي تمسك بمنديله الملوح ..

– أنا المودعة اليوم !

ابتسم لها وهو يستعيد ذاكرته في صفاء عينيها ..

– ربما اكونه يوماً .. ستقف امي واخوتي هنـــاك على الرصيف ، وسألوح لهم وأنا ابعث لهم قبلاتي.. جميعاً .سأظل الوح لهم حتى تغيب عني انوار حيفا .. حبيبتي حيفا !

زقزقت على شعرها الذهبي المتناثر ضحكتها ..

– في مثل هذا اليوم من العـــام القادم سآتي لآخذك ..

facebook.com/the.Boooks

وسألوح لامك واخوتك معك ..
ضمها اليه يقبلها ..

عند منتصف كل ليل ، سأنظر الى نجم الشمال ، ربما كانت السماء عيناك !

– وأنا سأنشر في افق الجنوب عند منتصف كل ليل، سماء عيني ، علني احتضن بهما نجمين راحلين عن وطنهما ..

– كلا يا ريتا ، لن يغادر النجمان سماءهما .. ولن يكونا منفيين في سماء اخرى !

– ولكنك اذا كنت تريد أن تقول الحقيقة فلا بد لك من أن تختار المنفى ! وسأساعدك أنا في منفاك على قول هذه الحقيقة .. انك تعيش هنا في قبر ! **شعبك كله هنا يعيش في قبر ، مظلم ، قاتم** ! وطنك هذا الذي لك ، وليس لك ، لماذا لا تهجره ؟ لماذا !؟ انهم يفتحون لكم الطريق ويساعدونكم على ذلك ، والى اي مكان تريد !!؟

– لو كنت تعلمين ماذا يغني الاطفال عندنا يا ريتا ، لما كنت تقولين ذلك !

وماذا يغني هؤلاء الاطفال ؟

– اطفالنا يغنون كل صباح قبل ذهابهم الى المدرسة ..

الاجراس تكاد تقرع
ووقت الوداع قد حان
فيا امي الحبيبة وداعاً

facebook.com/the.Boooks

ـ سأفكر فيك طول النهار
ولن انساك ابداً
لانني اذا نسيتك
ينساني الفرح
وعندما تقرع الاجراس في المساء
ولا بد من أن تقرع
سأعود اليك سريعاً
وآوي الى صدرك
لكي لا افارقك الى الابد
اقسم لن افعل
لأني اذا هجرتك يوماً
تهجرني روحي
وإذ ما نسيتك
ينساني الفرح

غصت بالدمع سفينة ، واهتزت أشجار السرو على صفحة الميناء . أخرج أمين منديله يلوح لها من هودج الكرمل مشيعاً للسفينة التي لا تحمله ، والتي لا أميرة له على سطحها ، ثم راح يتبعها بنظره وهي تبتعد عن الميناء .. وتبتعد !

تشبثت نظراته العائدة من هجرتها ، فوق الموج للا وطن ، بمناديل وطنه الملوحة من فوق سور عكا للعائدين إليه . رفع يده على جبينه الملتهب ، أخذت الأضواء تدور أمام ناظريه

facebook.com/the.Boooks

بسرعة عجيبة ، وكأنه يتعلق بارجوحة دائرية كبيرة ! الارجوحة تدور وتدور .. المشنقة الدائرية الكبيرة تدور بمشنوقيها وتدور دونما توقف ! الرقاب محنية على الحبال المشدودة ! والبوم الأعور يقف فوقها !! مئات الأعين المحملقة دونما حركة .. تلمع في الأنوار الدائرة بجنون . تشنجت يداه تحملان الرأس المحنية عليهما باعياء !

وقف عند أول أدراج شارع الوادي . تمطت نظراته البلهاء على عيون الشبابيك العمياء . غاص في المحاح الباهت ، السائل فوق رمة الاسفلت . لقد غابوا في المحاح جميعاً ، ومنذ زمن . واحد فقط لا يزال يتسكع . سيغيب هو الآخر عما قريب ، مازال في الجيتو جحر واحد خال !

وقعت مناقيد الغسيل المشنوق على حديد الشرفات عليه ، تنقر جمجمته . غصت نعلاه بقيء المجاري المبشومة ، والجرذان الغريقة عند أول السلم . الجيتو المغلق مطعون..الجيتو حبيبه!

* * *

كانت أصوات المتظاهرين في الصباح المسلول تغمر الشارع. والشمس العليلة تبسم للهزيج المتأرجح بضفائرها الحزينة .

تثاءب أمين باعياء . أيها الرفاق لماذا تزعجون الكسالى النائمين ؟ أيها الرفاق انكم تقتلونني ! أيها الرفاق كانت الحمى راقدة فأيقظتموها ، لتنخر عظمي ! أصواتكم أيها الرفاق

facebook.com/the.Boooks

قبيحة ، فلماذا لا تكفون ؟ أصواتكم أيها الرفاق تلهب القرحة الخامدة في معدتي . يا رفيق أمين ، انهض يارفيق..أصواتكم أيها الرفاق تدعوني ولا أستطيع أن ألبي .. ولماذا لا ألبي .. فهي جميلة ، أجمل ما في النداء ، إنها قوية وغدائر الشمس الهزيلة لا تقوى على حملها ! قال لأحمد في الأمس أنه لن يتظاهر . ولكنه إذا لم يكن هو هذه المرة فسيكون رفيقاً غيره ! ليس من طريق آخر .

وقف في الشرفة يطل على المتظاهرين .. مدحلة بشرية هائلة تتقدم بكل ثقلها تدحر سور التروس المتهور أمامها . لفحت وجهه الشاحب نسمة باردة . دمعت عيناه المتوقدتان بالحمى . تساقطت دموعه تحت العجلات الثقيلة المتقدمة . لن تذهب دموعه سدى . كانت دائماً تنثر على الاسفلت أمام عجلات المدحلة في سيرها إلى الأمام . الرفاق دائماً إلى الآمام . انك لن تهزم يا أمين . لن ينتصروا عليك !

— أيها الرفاق إلى الأمام .. إلى الأمام !!

لمعت صرخته ، الهاوية من الشرفة ، عجلات المدحلة المتقدمة . تلقفته الأيدي المشرعة إلى العلاء . تهور سور التروس أمام العجلات الثقيلة .. والمدحلة تتقدم .. وتتقدم . وأمين أسعد كان على أكف الرفاق يتقدم !

وفي شارع الوادي المندى بدمع الصباح . عبقت بسمة الشمس الحزينة المنتصرة ، وعلى إسفلته تدلى حرير شعرها ، يحتضن دمعتين سقطتا ، وقطرة دم ، تحت عجلات المدحلة المتقدمة .

facebook.com/the.Boooks

الراعي حمدان

انفلت منديل الشمس الارجواني على الأفق البعيد ، يلوح عند غرب بيسان ، مودعاً بيوت قرية سالم الناعسة ، في تمطيها على بسط اللوز المخضرة ، بينما وقفت حليمة على عتبة البيت ؛ تلملم رفرفات وشاحها المشيعة ، وهي تقبض بيدها الأخرى على ثنية حجرها ، لاهية بعينيها الشاردتين ، خلف قطعان الأغنام في مسالك تلال الغرب ، عن أزواج الحمام المرفرفة على كتفيها ، وتصفيق الدجـــاج الراقص على قمح قدميها الحافيتين .

رشفت رحيق النسيم متثائبة ، وهي تتخطى عتبة البيت إلى ساحة الدار المزنرة بزهر الرمان ونوار المشمش في اتجـاه قن الدجاج الطيني الصغير ، اللاجىء إلى جذع التينة الوارفة.. ونظراتها الرضية تزاحم مناديل الدخـــان المنفلتة من كوى الطابون ، محومة على سياج الصبير ، وهي تنثر العلف أمام الطيور ، وفوق أجنحتها المتزاحمة على هديـل ندائها القروي العذب .

facebook.com/the.Boooks

مالت على دلو معلق بالتينة تملأ المقر بالماء، ثم وقفت مستندة بردفيها الكنزين ، إلى جدار القن الواطىء ، تميل بجسمها إلى الأمام ، تنفض ما علق فوق ورود ثوبها الطويل من غبار وتبن دقيق ، فترقص أهدابه على خشخشات أساورها الطروب عن معصميها ، وقد استهواها منظر الدوري ، وهو يغازل الدجاج في مطاردته للحمام ، لاستراق العلف من أمامه ، وبسمة رضية ترف على كرز شفتيها الممتلئتين ، ونشوة فطرية تتموج في عسل عينيها ، فتنساب فرحة غبية في قسمات وجهها الخمري المدور ، تزيد من روعة السحر في جمالها البري ، ورقص الطفولة في أنوثتها الداجنة .

غير ان هذه الفرحة ، ما لبثت أن أخـــذت تتحول في تموجها ، إلى رقصة ريفية حزينة ، على كحل أهدابها الوديعة ، وقـــد حومت نظراتها على رجولة ديك الدجاج الأحمر في تبختره المتعالي حول الدجاجات ، الموقع على هزهزات ذيله الطويل المتموج ، منافساً ذكور الحمام الهادلة باعتزاز واثق في تجليها أمـــام إناثها المتهربة . فحولت وجهها نحو الغرب ، سارحة بنظرها الباحث عن حمدان زوجها ؛ في تبختر رجولته الراعية حول قطيعه عبر التلال ، وهي تتحسس ذلك التكور الوليـــد في بطنها برفق ، مرخية شد زنارها المهدب من حوله بدلال .

استيقظت حليمة من أحلام يقظتها العـــذبة ، على تحية

facebook.com/the.Boooks

رفيقتها بديعة لها،التي وقفت في الدرب المحاذي لسياج الدار ، تحمل فوق رأسها حزمة من الحشيش الأخضر ، فنظرت إليها ترد التحية باسمة ، وهي تخف للقائها مردفة :

– ميت مسا يمسيها .. الله يعطيك العافية ، هـــذا يختي مش مخلية حشيش في الوعر !

– يزيدك عافية يا حبيبتي .. ما بدك هالنعجات يشبعن أولادهن بهالسنة اللي الله يسترنا من شرها .

– اي ولا يا مستورة ، هو راسك مش إلك .. تقولي وجهك حبـــة بندورة .. أي سقطي هالحزمة عن راسك ، وتعالي غسلي وجهك وتريحيلك شوية .

أسقطت بديعـــة الحزمة عن رأسها ، وهي تمسح عرقها بردنها ، تابعة حليمة التي راحت تشدها ناحية البئر :

– الله علي دشرت ابني بايم . . وما تقولي لا طبخت ولا نفخت بعدني .

– يختي ما هي حماتك في البيت لا شغلة ولا عملة ، بدها تعجز عن حمله ؟ ويخزي العين عنها مـــا هي بتطبخ لسربة حصادين !

فقالت بديعة ضاحكة :

– يوم علمك يا حبيبتي ، ما بتلحق تدلق صدرها ، إلا هو شايـح وجهه وبادي يصرخ .. ساق الله وانا فاطمته ، ماعدليش قدرة عليه ، مص دمي يا غانمة مص .

facebook.com/the.Boooks

والتفتت إلى بطن حليمة التي كانت تتبع حديثها باشفاق قائلة بخبث :

– العاقبة عندك يا حبيبتي ، هياك مرخية الزنار .. تخميني صرت في الخامس يا عيني؟ على الله العون . الله لا يخيبلك رجا وتبكري بالصبي . صاحية يوم كنت تترخوصي عالحبالى ؟ هياك وقعت.. كنت منشفة ريقي : اجت ام بطن ، وراحت ام بطن ..

احتضنت حليمة ذلك التكور الراعش ضاحكة ، وقد توردت وجنتاها خجلاً ، ثم قذفت بالدلو الموثوق إلى باب البئر داخله ، قاطعة على بديعة حديثها .. فندت عنها شهقة ذاهلة، وهي تصفع ردفي حليمة ، التي أخذت تضحك منها قائلة :

– صغر ونوم في السرير ؛ مالك يختي شهقت هالشهقة !؟

خفضت بديعة رأسها وهي تقول بصوت خافت :

– بدك الصحيح ، منيش عارفة شو هللي صايبني ! ما بسمع اقلاتها خشة يا مستورة ، الا بحسلك قلبي سقط من الخوف !

– ها هي والله ! بقلن العجايز : لما بتولد الواحدة اول مرة ، بتفقد خوفها وخجلها ، اما انت يختي – ويحزي العين عنك – فقدت خجلك وزدت خوف . . مالك يا بديعة ، جهلت من جديد يا حبيبتي !؟

facebook.com/the.Boooks

نظرت إليها بديعة ، وهي تجفف وجهها بذيل ثوبها الطويل قائلة :

والله يختي من يوم بلا هالذياب اللي بخرفوا عنها الرعيان !

لطمت حليمة على خدها :

– ذياب ايش يا عيني ، وبلا ايش ؟ كل عمره الوعر مليان واويات ..

– لا والله يا حبيبتي بقولو انها ذياب من حق . ومطال الليل ، ناجي جوزي ، يخرفني كيف انها بتفافله عن الغنم ، هو وحمدان جوزك .. ما هم اليوم برعو سوى .

– اي بالله عليك تسكتي .. اللي بسمعك بقول هاي توها جاي من المدينة .. يم وخليها ذياب من حق مثل ما بتقولي ؛ هي الذياب بتخيف واللا بتوكل بنادمين !؟ والله ما بخلالي نوم إلا عصوتها وهي تعوي بين اللوز والزيتون.. وصوت الكلاب وهي تنبع في الحارات عليها ؛ وحمدان متمدد عجانبي مثل فرع السنديان ، ما بتنهز له خاصرة من إشي !

وضعت بديعة يدها على خدها مستغربة، ثم قالت بذهول:

– يختي عليه ! يم بنام وبتهجع له عين؟ شو هالزلة هذا!؟

– تقولي عليه ولد صغير .. ما بلحق احك له راسه ، الا هو بسابع واد .. أنا بقول لك ، مرات بصحى من النوم في الليـــل ، وبطلع يتفقد الغنم ، وبرجع ينام . من يوم راح هالكبش وهو قلقان !!

facebook.com/the.Boooks

– اما ناجي يختي ، والله ما بتغمض له عين ؛ إلا بعد ما يغيب سهيل من السما ! وأنا يحرم علي النوم ؛ ما دام الليـــل ليل ما دمت متهلوسة وعيني يقظانه ! زي اللي بحسلك الذياب هاجمـــة عالبيت تاتخطف ابني من حضني . حتى القمر يا ولية صار يتهيالي منها، وبسد الطاقة الغربية اللي بزرق علي منها . . والغيمات الفي السما ، بخالها عشكلها ساعة اني بقشمها عروس الجبال سارحة ! يا قدرة النبي تحمينا ، لو انك مرضعة كان قلت علي صادقة ! نذر علي ، لعلق راية « للشيخ حمدان » ولكل الفقرا . شيل الله يا فقير بلدنا .

كانت حليمة تضع يدها على صدرها ، وهي تنظر إلى بديعة بدهشة واستغراب ، وعيناها تائهتين بخوف حائر ، وما ان فرغت من حديثها حتى شهقت حليمة قائلة :

– يا سيدنا الخضر تحمينا ! اسكتي يختي ، اسكتي ..صار قلبي مثل زغلول الحمام يرف . أي بدي أقول ما له هالزلمة ، دايم الدوم صافن وعقله سارح !

– أي ما هو جوزي أقطع ! تقولي يا ولية – كفى الله الشر – قابر له حبيب .

نظرت حليمة نحو الغرب المدثر بالزيتون ، وهي تصغ السمع الى الحان ارغول ، أخذت تنبعث من خلف المضاب ، ممزوجة بنباح كلب متقطع ، ثم غمغمت بسمادة حزينة :

– هذا هو حمدان مروح بالغنم .. بس قلبي يا بديعة يختي

facebook.com/the.Boooks

نقز ! أنا يختي والله ماهوش خافي علي ، بسأله يا حمدان وين راح الكبش ؟ بقول لي مرارة طقته ومات في الوعر. وبسأله يا حمدان ليش بتشيل الجراس من رقاب الغنم ؟.. بزعل علي وبقول لي تدخليش بشغلي ! والله وكيلك ، من يومها مـــا بتجرأ اسأله عن إشي .

– يتعلم من ناجي جوزي ، اللي بخرفني عالصغيرة قبل الكبيرة ، ومالك ، صاحب الهم يقوم فيه .

– ما هو يختي قايم هو مقصر ! إلك الله من يوم ما نقلت ما بخليني أرفع قشه . هذا هو مثل ما أنت شايفتيه ، كل يوم بروح عالدار حمل حمار حشيش ! ما أنت شايفة هالسنة ، والنعجات كلهن مرضعات . مـــا في سنة يا خايبة الا هالبير يطفح لخرزته من مية الحيط لحالها ، الا من هالسنة الغبرةهاي اللي لا مية الحيط ، ولا مية الحارة وصلت فيه طول قامة .

وقفت بديعة وهي تشبك ذيل ثوبها بزنارها، ثم قالتوهي تتجه ناحية الحزمة متنهدة :

– أيه يختي يا حليمة .. غابت الشمس .

ساعدت حليمة بديعة على رفع الحزمة الى رأسها قائلة:

– رضعي ابنك وتعالو اسهروا عنا .. جيبيه معك هه .

– واجيبه اخرى لليش .. عشان تقزعيلي خدوده ؟

– ما أنت باخنتيني بموت عالولاد الصغار .. أنت عارفه يا خايبة ، حتى الجراوة النجسة بحضنها عصدري وبلاعبها ...

facebook.com/the.Boooks

والعبران بحطها بحرجي وبفليها ..وما بحلالي إلا وهي تلحوس بوجهي ! شو قولك اني بصير أحبب فيها مرات ؟.. بدك تقولي علي هبلة ، قولي ..

ضربتها بديعة على كتفها وهي تضحك منها قائلة :

– عزيين يا خايبة ، كنك منهبلة عن صحيح .. بالعسى تروحي لاقطيها وحمة .. يكون دور عليك ! تني أروح ، تلاقيه هالقيت معزر الحارة بصراخه ، وحماتي تلاقيها صارت نابشة قبر ابوي .. تقعدي بالعافية يا عيني .

– يعافيها الغانمة مش ما تجيبيهوش !

اطلت الخراف عند اول السفح،فأغلقت حليمة باب البيت ، بعد أن احكمت باب القن ، وباب حظيرة الخراف الصغيرة ، التي شرعت تثغي بلا انقطاع ، ثم راحت تتهادى على الدرب للقاء حمدان واغنامه،وكلمات بديعة عن الذئاب لا تزال تقلقها وتلاحقها على دربها .. فشعرت لاول مرة انها تشك في رجولة حمدان ، على الرغم من ايمانها بقدرته على رد قطيع من الذئاب وحده ، فجميع الناس في القرية يضربون المثل بشجاعته وقوته ، منذ ان كان بعد في الثامنة عشرة ، حين تعرض لقطيع والده نمر مفترس ، لا يدري حتى الشيوخ كيف ظهر في الجبال ، فمزقه بخنجره وهو يعاركه .. ثم حمله على كتفيه والخنجر لا يزال مغروساً في قلبه الذي ينز دماً ، وأتى القرية به ، ثم سلخ جلده عنه في ساحة البلد ، على مرأى من جميع

facebook.com/the.Boooks

الناس الذين كانوا يحيطونه ، وعلقه في صدر البيت ، حيث لا يزال حتى اليوم . وقـــد رأته يومها من فوق سور الدار ، وزغردت له . فكان ذلك اليوم الذي فيه أحبه قلبها من بين جميع الشباب في القرية ، حتى أكثر من ابن عمها الذي كان يريد والدها تزويجها منه .. وطافت في خاطرها تلك الأغنية التي كانت تغنيها على مسامع الصبايا على درب السيل لتغيظهن، فراحت تغمغم بحنان خائف :

يا بنت يا ام ضفاير ذهب
يا ورد فتح يا فرع ياسمين
سبحان البدع جمالك ووهب
وهبت هالحسن كله لمين ؟
قلت ، للي مال له قلبي وحب
للولد راعي الغنم بوّقذّله عالجبين
لزين الشباب بو سن ذهب
لحمدان ولفي،حمدان نور العين

* * *

اوت حليمة الى فراشها ، بعد ان ذهبت بديعة وزوجها، الا انها لم تستطع النوم ، فراحت تنظر الى وجه حمدان وهو يغفو الى جانبها .. وهي تفكر في ذلك الوجوم الذي كان يخيم على سمرهم .. لا سيما بعد ان اطلعه زوج بديعة على رغبته

facebook.com/the.Boooks

في فصل أغنامه عن القطيع ، لينزح بها الى الغور مع بعض الرعاة من القرى المجاورة ، بعد ان رفض النزوح معه . وبقي حمدان طيلة الوقت يحاول اقناعه على ألا يفعل ذلك ، الا انه أصر على رأيه . وحين هم بالخروج وزوجته ، أخذ حمدان ابنه من بين ذراعي بديعة ، وهو ينظر اليه قائلاً :

– تروح تعزب يا ناجي في الغور ، وهذا عمين تاركه ؟.. وبديعة يا ناجي مين يرعاها ؟..

– على الله يا حمدان ، وعليك ..

– تنساش يا ناجي ، الغنم ما بحميها غير كلبهـــا وذراع راعيها !

– واعمل ايش يا خوي ؟ ما انت شايف بلا هالجمام اللي ذابح الغنم من قلة المراعي .. وبـــلا هالذياب اللي جاها فوق بلاها ! قضيت هالعمر – يا حمدان ياخوي – وانا ارعى عالفلاج ، تا حوشت هالنعجات .. حفيت قدامي ، وذرعاتي كلت . وها لقيت اقعد اتفرج عليها ،الوحدة تموت ورا اختها وكل طالع فجر اسحب ثنتين وثلاث للكلاب يوكلوها ؟!

– يا ناجي خلي عقلك برأسك ! يا ناجي الحلال يفنى وترزق بداله ، اما العيـــال والبيت مالهاش عوض .. وليش يخوي نعجاتي سقطن علي من السما !؟

– والله يا حمدان كلامك ما هوش داخل دماغي .. أنا

facebook.com/the.Boooks

مشرّق من طلعـــة الشمس ، والفرج على الله . عدّك مشرّق وراي يا حمدان ..

– بدك تشرّق يا خوي شرّق . الله يسهل عليك . اما انا وراك منيش مشرّق يا ناجي ، لو ببقاش عندي ولا عابورة وحدة . ما دام حمـــدان اخوك ؛ ما ذيب في الوعر يطيح ذياله .. وما مرعى في الشروخ يعصى عليه . . ولا علة تطب في الغنم يخفى عخوك طبها ! قال وين يا ناجي بالخير .. قـال مشرق عالغور ! قال في ذياب في الجبال قـــال !! الله عليك يا زمان ، تعيش يا حمدان وتشوف .. باطل .. باطل . والله ماني هاجرك يا هالبلد ، لو بفطس في زقاقاتك ومـــا بلاقي مين يدفني .

شهقت بالدمع عينا حليمة ، وخيل إليها انها تسمع ذلك اللحن الحزين ، الذي كان يرجعه حمدان عند عودته ، فوردت نفسها خلفه سواق من الفرح الحزين ، إذ كان أول كلمة حب يقولها حمدان لها ، حين غزا حبها قلبه ، وهي لا تزال بعـد فتاة غريرة . . كان ذلك عندما يلقاها على السيل مع الصبايا الواردات عليه ، حين كان يرد بقطيعه . ثم صار يتعمد الورود في نفس الموعد الذي تأتي هي فيه .. لكي يملأ مع الماء جرتها، من نفثات قلبه الحري المنبعثة من ألحان أرغوله ، المعبرة عن أغاني العشاق التي تعرفهـــا . . وعن أغنيات تغنيها الصبايا للعروس في ليل زفافها فكانت تحمر عندها خجلا . . ولا سيما

facebook.com/the.Boooks

حين كان يخف لمساعدتها على رفع جرتها إلى رأسها، منتهزاً الفرصة ليزين فتحتها بقدود الخندقوق ، او بضمة من الازهار البرية ، التي كان يجمعها لها من المراعي ، فتحمل جرتها وتروح تتهادى في مشيتها امامه متـــأخرة عن باقي الصبايا ، وهي ترجع بقلبها وسمعها إليه . بينما يظل هو على السيل ، يغمره بزفرات ارغوله المتحرقة على هجرها له وابتعادها عنه .

ومن خلال دموعها ابتسم خاطرها ، على صورته حين نفد صبره ذات مرة ، بعد ان ساعدها على رفع الجرة إلى رأسها قائلاً :

ريقي ناشف يا حليمة . . وبنفسي شربة مي من جرتك ترد لي روحي ..

وقد ادركت عندها ما يقصده ، الا انها قالت متجاهلة :

— يا حمدان السيل جاري بعده..وبركته فايضة عالجنبين !!

فرد وهو يأخذ الجرة عن رأسها :

— لا مية اللجون يا حليمة .. ولا مية الشريعة كلهـــا بترويني ، مثل رشفة مي من جرتك .

هر الكلب في الخارج ، وراح ينبح بشدة ، وهو يتنقل ما بين الحظيرة وباب البيت ، فتعـــالى إثره نباح الكلاب في ازقة القرية .

انتفضت وهي تحتضن حمدان ، وقد تسمرت بالباب على ضوء المصباح الشاحب عيناها .. ثمة دبيب في الخارج ، وثمة

facebook.com/the.Boooks

حركة مضطربة غمرت حظيرة الخراف ، فندت عنها صرخة مكتومة في اذنه وهي تهزه :

– حمدان .. اصح يا حمدان ..

فتح عينيه وهي لا تزال تهزه متابعة :

– الكلب قتل حاله .. والغنم في الصيرة جافلة ! يا خوف قلبي الذياب طبت في هالليل عليها !!

اخذ خنجره من تحت وسادته هامّاً بالنهوض :

– متخافيش يا حليمة ، الكلاب تطردها ، وهـــذا انا طالعلها ..

– يا حمدان توخذك الذياب بوقة ، ما تطلعش ..

– يا ولية اعقلي ، ما تخافيش عحمدان ..

– وكيف ما خافش ؟ فداك الغنم كلها .

– يا حليمة اطلقيني ، حمدان طال قلب النمر من صدره..

– ايامها بقتش حليمة حلالك ، وبطنها بقاش لحلقها ..

– طب مش طالع . هذه هي الكلاب هديت،وما عادش صوت بره ، غير صوت الحمام اللي جفلت عينه وقعد بهالليل يبرجم .. طب نامي تنـّام .

تدلى من طاقة في اعلى الجدار ذيل القمر ، وشملت رهبة الصمت ليل القرية مرة اخرى ، فشملت بصمتها فراشها . إلا ان حليمة لم تغمض عينيها، إلاّ بعد ان بعث المؤذن في الفجر روحه ، ليغمر قلبها بالطمأنينة والارتياح .

facebook.com/the.Boooks

وفي الصباح كانت عاصفة الذئاب في ليل القرية ، حديث القرية كلها ، وما نشره دبيب مخالبها المتوحشة ، من فزع في أزقتها . وقد أقسم زوج بديعة لحمدان على انه رآها وهي تتفحص الأبواب ، وحظائر الاغنام ، وأكد على انها كانت جميعها ذئاباً غريبة الشكل مفزعة وكاد حمدان يصفعه ، حين راح يحثه مرة اخرى على النزوح معه نحو الشرق باغنامه ، وهو يصرخ في وجهه :

ـ قلت لك يا ناجي بطلعش من هالبلد ، لو بفطس بزقاقاتها وبلقاش مين يدفني ! حمدان قال كلمته وبرجعش فيها .. بدك تشرّق يا نذل شرّق ، اما حمدان ؛ درب النذال مـا هيش دربه ، وعمره ما نقل فوقها قـدم . براسك يا ناجي هالموال غنيه ! بيجيك يوم يا ناجي توكل ايديك فيه ندامة ! مية الغريبة عشاربها حنظل يا ناجي ، وبرسيمها الأخضر عالغنم عليق !

* * *

كانت سنة سيئة ، ولم يعد لحليمة جلد على عراك ما باتت تعيش فيه من خوف دائم على سلامة حمدان . فالجبال العامرة بالذئاب ، تقفر من المراعي يوماً بعد يوم ، والهجير خدد وجه السهول المتجهمة ، مما جعله يتفادى رعي اغنامه فيها ؛ كي لا تصاب بمرض الظلف فيقعدها عن المسير .. بعد ان نجح في إشفائها من مرض الجمام الذي كاد يقضي على ثلثها ! فصار

facebook.com/the.Boooks

يتركها في الحظيرة في النهار لحليمة تعتني بها ، وترعاها ساعات قليلة في جدر القرية ؛ بينما يذهب لجمع الحشائش النـــابتة في في مجرى نهر المقطع الجاف ، بعـد ان اصبـح لا يستطيـع جمعها عن جـــانبي سيل اللجون لكثرة الذئاب بين قصبه المتشابك . وفي الليل كان يظل ساهراً على سلامتها . فراحت حليمة تفكر في اطلاعه على رغبتها في استدعاء بديعة لتعيش معها وتساعدها ؛ لا سيا بعـــد ان باتت هي الأخرى تقضي لياليها قلقة على ناجي ، الذي انتقلت إليها اخباره ، بانه ترك الغور ، وقطع باغنامه الشريعة لتـكاثر الذئاب هناك ايضاً . الا ان بديعة ما لبثت ان قررت اللحاق به بطفلها ، مع بعض النازحين الى الشرق لتنضم اليه ،رغم توسلات حليمة ومحاولاتها لحملها على البقاء ، واقناعها بان حمـــدان سيضعها في عينيه لو جاءت لتعيش معها .

وبينما كانت حليمة لا تزال ساهرة وحدها ذات ليـــلة ، تطرز لبكرها المنتظر ثيابه الصغيرة ، وهي ترافق بصوتهـا العذب الحان ارغول حمدان الساهر على السطح ، القى القمر المتبختر على باب بيتها المفتوح في حجرها حزامه . نفضت حجرها ووقفت في الباب ترنو الى فارس حزيران وهي تعقد يديها المسكتين بالثوب الصغير فوق زنارها ، تتبعه بأحلامها في تخطيه تلال اللوز والزيتون ، على جواده الاشهب ، المتعلقة بركابه الذهبي .

facebook.com/the.Boooks

نظرت الى السطح ونادت بصوت ناعس :

ـ حمدان ..

سكت الارغول ، وأطل حمدان من فوق السطح عليها :

ـ بعدك سهرانة يا حليمة ؟

ـ مش جايبني نوم يا حمدان .. بنفسي اطلع لعندك نزّل لي هالسلم .

ـ يا حليمة الحيط عالي ، وانت مثقـــلة .. والسطوح ملانة رجال !

ـ طب انزل انت يا حمدان .. انا خايفـة ، وهالقاطعة اصحابها ، من غيبة الشمس وهي تزعق عالصبر .. صوتهابتش البدن .. لو انك تشحلك حجر عليها تكشها !

ـ يعني هذا اللي ناقصنا .. خايفة من البومة يا حليمة !؟

ـ مش خايفة من البومة يا حمدان ؛ يعني غير تقلك اني حاسة دوكة تحت البلد . حتى الغنم حاسة عليها ومش قاعدة تعلك ، قلبي برف يا حمدان !!

ـ بلاش هلوسة يا حليمة ما فيش اشي .. هذا هو القمر مضوي الدنيا ، والذياب في الوعر مالهاش صوت ..

ـ بس انا خايفة يا حمدان .. خايفة عليك !!

ـ ما تخافيش يا حليمة ، غلقي هالباب وفوتي نامي ، حمدان عالسطح سهران ، وخنجره بو حدين في حزامـــه ، ومقلاعته ما بتخطي هدفها .

facebook.com/the.Boooks

– يعني منتيش نازل !؟

آخر الليل نازل يا حليمة .. فوتي حطي رأسك ونامي، وخلي السهر لصحابه .

– طب تصبح على خير يا حمدان

– تلاقي من الله خير يا حليمة .

لوحت اهدابها لفارس الليل مشيعة ، وهي تغلق الباب خلفها . وما كادت تأوي الى فراشهـــا ، حتى فر النوم من عينيها ، تطارده أصوات راحت تتعالى في ازقة القرية ، كتلك التي كانت تأتي من الجبال المحاذية ، ثم اخذت هـذه الاصوات تزداد وترتفع ، الى ان اغرقت القرية فقفزت من فراشهـا الى الباب ، إلا انها وجدت نفسها تتجمد عليه ، دون ان تجرؤ على فتحه .. وقد انتقل اليها صوت حمدان .. وهو يصيح بالذئاب المتألبة عليه ، بينما كان يقاومها بكل قواه.. واختلط عليها عواء الذئاب المتصاعد من الازقة بصوت الأغنام الثاغية ، والكلاب النابحة في عراكها معها !!

نظرت من شق الباب الى الخارج تبحث بنظرها عنه ، وهو يعاركها على باب الحظيرة بنصل خنجره اللامع في ضوء القمر ، يسانده الكلب في دفاعه المستميت الى جانبه ، فانتزعت لمعات الخنجر المصوبة الى قلوب الذئاب منها ، ما كان يقعدها من خوف ، حتى انها لم تعد تفكر في تحركات ذلك الجنين الذي

facebook.com/the.Boooks

كان يعمر جسدها ، فيأسر قواها . وأحست ان لا بد لها من فعل شيء ما ، تساند به حمدان وكلبه .

تركت حليمة الباب واندفعت خارجة من باب صغير في صدر البيت الى ازقة القرية ، وراحت تعـــدو بكل قواها تطرق الابواب ، وهي تستغيث باعلى صوتها ، الذي كان يتردد في اطراف الليل المقمر :

ـ جاي يانشاما جاي .. الذياب طبت عالغنم !!

ومن زوايا الليل ترتفع الاصوات الخشنة :

ـ اجوك يا اصيلة ..

ـ بنت الرجال الصايحة مين ؟

ـ الصايحة حليمة .. الذياب طبت عالغنم ..

ـ عينيك يا حليمة !

ـ اخوتك يا بنت ..

ـ عليها يا هابين الريح ..

ـ رجالك يا نشمية ..

كانت اصوات الرجال ترتفع ، وهي تبتعد عن الذئاب الهاربة ، حين وجدت حليمة نفسها طريحة في احد الازقة ، منهوكة القوى .

لم صوت حمدان الجريح اشلاءها ، في تصعده خلف تلال الزيتون القريبة . وقد ظنته لاول وهلة ، احد الاصوات التي

facebook.com/the.Boooks

يشهق بها الليل .. الا انه كان اقربها الى نفسها ، فأصغت السمع على ذلك الصوت يعود لارتفاعه مرة اخرى ..احتضنت قماط طفلها اللحمي ناظرة الى السماء داعية .. تفجر الصوت الجريح ثانية ، وكان هـــذه المرة على وهنه اقوى واوضح في ترديده :

– حليمة .. حليمة !!

فهرعت نحوه تلبي نداءه..وما كاد صوتها يرتفع بالاستجابة، حتى تحشرج في قبر الليل .. لمع في السماء خنجر، فارتعش في مسالك الزيتون جسد حليمة .. وبين ذراعيها كانت لا تزال تضم قماطاً من لحمها ، يلفع بكراً لها .

* * *

كان ذلك قبل اعوام طويلة .. حين كان الاجداد في قرية سالم شباباً اقوياء .. والجدات فيها صبايا حسانا .. ومن يـلم بهذه القرية المنسية ذات يوم ، يرى العم حمدان ، راعي الغنم، يجلس متكئاً على عكاز زيتون ، الى جذع تينة قديمة ..وعيناه تسرحان فوق تلال الغرب .. وفي الليل ، فوق السطح .. خنجر في حزامه ، ومقلاع قديم .. بينما يكون رجع ارغوله الذي لا يعرف الملل ، آخر ما يرافق فارس الليل ، ذا الجواد الاشهب ، في تخطره بين كروم اللوز والزيتون !!

facebook.com/the.Boooks

أم الخير

الوجه قمحي مدور ، لم يرس فيه حارث السنين سكة . وكان شالها الابيض الناصع ، ينساب على شعرها الفضي دائماً ، ويجمع تقاسيم وجهها الهادئة في تناسق رائع ، ثم يتربع على كتفيها وكأنه قاعدة لرأس تمثال ابدي التأمل ، حتى ليصعب على ذاكرة كل من عرفها نسيانها . تماماً رأس تمثال فوق كل رواق ، في كل بيت قديم في القرية وعلى ناصية كل منحنى في ازقتها ، لا سيما تلك البسمة الربيعية على وشمي غمازتيها ، تلك البسمة التي عرفها كل قلب ، وذاقت حلاوتها كل عين . فشيوخ القرية ظلوا على ضفافها شباباً اقوياء ، والصغار أطفالاً بقوا ، في ذكرها لم يكبروا ! فعندها توقف الزمن وما لبريده من مسيرة بعدها !!

« ام الخير » كان اسمها . هكذا عرفتها وجميع الصغار في قريتنا ، فقد كان كل ما لديها لنا ، كل اشيائها التي كانت تصنع الحب للصغار . حتى غضبها . فإذا مرت بسمة يدها

facebook.com/the.Boooks

الخيرة على جبين مريضنا شفي، واذا ارتاحت على رأس شقينا رقد في حجرها زغلول حمام ، حين كانت تأخذنا امهاتنا اليها لتباركنا .

وفي ايام الشتاء ولياليه القاسية ، حيث لا لقاء لآبائنا مع الارض واجدادنا ، كانت ارضنا الطيبة تنتقل واخبارها الى بيت ام الخير .. لتلتقي هناك معهم حول نارها . وعلى الرغم من ضيق قنطرتيه كان بيت ام الخير يضم جميع ارض القرية وجبالها ، وحين كان حبه يكبر حول دفئها ، كانت قنطرتاه تتسعان وتتسعان حتى تضما بينهما كل بلادنا .. صيفها وخريفها ، شتاءها وربيعها ، فتاة متجددة الصبا ! تماماً كام الخير نفسها .. وليلة بعد ليلة ، ومن ثم يوماً بعد يوم !!

كانت الايام تمر وخير ام الخير يزيد، وحبها ينمو ويكبر، وحب النـــاس لها يكبر معه ، لا سيما حب حسن الحراث ، ذلك الذي قضى العمر في خدمتها ، منذ أوكله ابوها بفلاحة ارضه في صباه ، وام الخير لا تزال بعد صبية حسناء ، فأحبها حب الأرض نفسه، الى أن تغنى الناس بحبهما .. حتى بعد ان تزوجت من غيره، وانجبت منه ابناً سواه لم تنجب . ثم مرت عليها وعليه السنون وهو لا يزال على حبه القديم الصامت لها، بعد ان قطع على نفسه عهداً بان لا يحب غيرها ، الى ان شاخ وهو لا يزال اعزبا، مما جعل الناس يدعونه فيما بينهم بالناسك، لخلو مجالسهم منه والتهائه عنهم كل هذه السنين الطويلة بالارض

facebook.com/the.Boooks

وحدها .. وكان اذا ما جرى على لسان احدهم ذكره، خفض الصوت خشوعا ، لا سيما في حضرة ام الخير التي كانت تغض الطرف لذكره وتركن الرأس ، لعاشق قديم أحبها . اما هو فلم يكن احد يجرؤ على ذكرها امامه ، غير اولئـــك الرعاة الذين كانوا يرددون بالفطرة خلف اغنامهم اغان تناقلوها عن حبه .. وهم يمرون به خلف فدانه .

هكذا كانت الايام تمر على قريتنا ، ولم يكن احـد في القرية كلها يعرف ان كارثة ببيت ام الخير ستحل ذات يوم ، رغم انهم كانوا يعرفون ان تلك الحية التي قتلت زوج ام الخير حين كانت بعد صبية ، لا تزال تعشش في قنطرتي البيت.. إلا انها منذ ذلك الحين لم تظهر ، حتى باتوا يعتقدون انها ترقـــد رقدة الموت ، بعـــد ان افرغت كل سمها في كعب رجله ، ولكبرها في العمر . فقبل ان تقتل زوج ام الخير بأعوام طويلة كانت قد قتلت فدان جده في ساحة الدار، وقضت على جميع ازواج الحمام في البرج وهكذا بقيت تتنقل من مكان الى آخر في جوانب الدار الكبيرة الى ان استقرت بين اخشاب السقف. وكانت ام الخير تنبه سمارها الى انها بدأت تسمع نقيقها الذي يشبه نقيق الدجاجة الراخمة على البيض ، كلما اقترب الصيف، الا ان جميـــع الشيوخ كانوا يؤكدون لها ان ذلك النقيق الذي تسمعه ما هو الا حشرجة احتضارها . وهم يروون مختلف الروايات عن حيات معمرة صادفوها في حياتهم الطويلة ، او

facebook.com/the.Boooks

تناقلوها عن غيرهم ، والتي تؤكد جميعها أن احتضار الحية المعمرة يشبه نقيق الدجاجة الراقدة فوق بيض ، وانهـــا لا تستطيع السعي والخروج من مرقدها حتى تموت. ولا يكفون عن مثل هـــذه الروايات حتى يلعن أحدهم سيرة الحية ، التي إذا ما ذكرت في حديث لا تنتهي ! ولكن أم الخير لم تطمئن لرواياتهم وأخبرتهم انها تنوي هدم السقف وبنائه من جديد قائلة :

– ولكم يا رجال ام الخير ما بخيب حدسها . مطال النهار الدويريات تحوم فوق السطح ومـــا بهدالها جناح ، والسنونو هجرت عشوشها في القناطر وهجت !!

وذات ليلة من ليالي حزيران المتوهجة ، جلست أم الخير مع ابنها وأحفادها للعشاء قبل أن يعمر مجلسها .. ورغم انها لاحظت فقاعات تطفو على وجه طاس اللبن المعلق في زاوية القنطرة الغربية ، فقـــد ظنت ذلك بسبب الحر الشديد . ولكنهم ما كادوا يفرغون من تناول عشائهم حتى فتك السم بهم جميعا .. عدا ام الخير ، التي وجدها السمار فاقدة الوعي متورمة الأطراف !!

* * *

ترك السم الخبيث داءه في جسم ام الخير ، رغم كل مـــا استعمله الشيوخ مما يعرفونه من طب لاشفائها ، حتى غدت

facebook.com/the.Boooks

كالهيكل ترقد في فراشها لا تستطيع مغادرته ، وصار مجلسها يقفر يوماً بعد يوم .. إلا من بعض العجائز اللواتي كن يقمن على خدمتها ! أما نحن الصغار فلم يعد أحد منا يجرؤ حتى على الاقتراب من باب بيتها ! وكان الحزن عليها والخوف منها ، يجمعنا عند منحنى الزقاق المؤدي إلى بيتها خلسة عن أمهاتنا ، ننتظر عجوزاً تخرج من عندها لنسألها أخبارها ، وإذا ما كان وجهها لا يزال نحيفاً ، وإذا ما كانت لا تزال تأكل الأطفال بأنيابها الطويلة الصدئة ، كما تقول لنا امهاتنا !؟

تحول الداء في جسمها إلى قروح قائحة ، أخذت تنتشر في جسدها ، حتى لم يعد أحد يجرؤ على الاقتراب من فراشها ، حتى ولا العجائز اللواتي كن يقمن على خدمتها، خوفاً من انتقال الداء اليهن ، بعد أن شاع في القرية ان هذه القروح معدية ، وان احدى العجائز قد بليت بها حقاً .. وراحت تعدو فاقدة الوعي في أزقة القرية تمزق لحمها بأظافرها !!

عم الفزع جميع أهالي القرية ، وصار بعض الناس يوقدون النار في بيوتهم رغم حر تموز ، اعتقاداً منهم انها تحول دون تسرب الداء الى بيوتهم ، ويتنظرون موتها . وهرع بعضهم الى كروم الزيتون فوق التلال المقابلة ، بعيالهم يقيمون فيها ، ثم ما لبث البعض الآخر أن أخذ يلحق بهم يوماً بعد يوم يأساً من شفائها !!

كانت أم الخير تشعر بخلو القرية من حولها شيئاً فشيئاً ،

facebook.com/the.Boooks

فتتعلق عيناها الجاحظتان بعيني حسن ، الذي عـــاده الحب القديم ، فعاد اليها ليكون آخر من يقـــوم على خدمتها .. ونظرت اليه ذات مساء ، وبسمتها الأبدية تسمو على قروح وجنتيها ، وترف على شفتيها المتمتمتين :

– كنهم الناس هجروا البلد يا حسن ؟

فابتسم لها حسن مواسياً :

– ما دام حسن يا خضرة جنبك ، ما حداش هجرها .

– يعز الموت علي يا حسن ، والناس اللي حبهم قلبي بعاد عني .. ترى بعيش يا حسن وبشوفهم حوالي من جديد !؟

– بتهون يا خضرة .. بتهون .. أيوب مـــات وطاب يا خضرة ! وما بعد الشدة إلا الفرج .. الله كبير !!

ورفعت أم الخير خنصرها ..

– الحمد لله ! الحمد لله على عطاياه ! حكمته !!

– يستأهل الحمد ، عالمليحة وعالعاطلة .. بعسرهـــا وبيسرها !

وطال عناق نظرتيهما .. وعلى كل نظرة تعانقت دمعتان هادئتان ..

– كاميك بتحبني يا حسن ؟

– ما دام اللي وهبني الحب عايش يا خضرة !

facebook.com/the.Boooks

– بس يا حسن جلدك صار مثل الحالول ..ولقاح سكتك هلّت مواسمه ، وما عاد في هالبلد مين يصيح موال منجله .

– اللي منك خير يا خضرة . واللي بفرجها عليك بفرجها علي ..

– والله يا حسن ما عاد فيها فرج .. يومين ، ثلاث يا حسن و ...

لثمت بسمات قروح راحته قروح شفتيها تسكتها ..

– ولو يا أم الخير ، عهدي فيك صامدة، وقلوع شدايد.. تيجي العواصف وتروح،وسنديان جبالنا ناصب مثل العرايس.. وزيتون بلادنا يا أم الخير في الخريف بتدر مواسمه ، وزيته يطفح خوابينا .. وفي شهور الشدة يملا حلالنا سوار دورنا عبران . وما دامت جبال بلادنا تحلب غيوم سماها وتملا جرار أم الخير ميّ، ما دامت أم الخير عايشة وتشرّب الناس ميتها. والقروح اللي عافت الناس بلاها ، شامات حسن على خدودها تصير ، يبهر الناس زينها .

* * *

وهكذا ظل حسن يعزيها بقربه ، رغم تلك القرحة التي انتشرت في جسدة هو الآخر ، والتي كان يداويها بنفسه بما يحضره من الجبال من أعشاب وجذور جافة .

facebook.com/the.Boooks

وذات صباح صحت ام الخـــير من سكرتها تبحث عنه بعينيها . غير انه كان قد خرج إلى الجبال منذ الفجر ولم يعد. وكانت القرية كالخوابي العاقرة من حولها ؛ فلا خوار ثور ، أو حتى عواء كلب تسمعه ! فراحت تئن بقوة عله خـارج المنزل فيسمعها .. وكانت قـد أكدت الموت في صحوها هذه المرة ، وعز عليها أن تغمض عينيها على غير مرأى عاشق قديم لهـا .

حرك صحو الموت فيها قوتها القديمة ، فراحت تزحف خارجة من باب البيت إلى باب الدار الكبـــير ، ثم تابعت زحفها الواهن في أزقة القرية ، إلى أن وصلت طرفها المطل على كروم الزيتون، حيث انتقل إلى مسامعها نباح الكلاب من بينها ، ولاحت لعينيها أعمدة الدخان المتعالية من مواقـد النازحين عنهـــا .. فانتفضت منتصبة بجسدها المقروح ، ودمعتان تحومان على ضفتي آخر بسمة لها .. بعد أن لاح على الدرب حسن !!

كانت بسمتها آخر ما بقي يشرق من وجهها ، حين وقف أمامها حسن ذاهلاً، وقد بدأ جسمها يتحول إلى جذع شجرة عجوز جافة !! فصفق كفاً بكف أسفا ..

– الله على ايامك يا ام الخير !! حتى الموت عجز عنك!!

facebook.com/the.Boooks

شهقت بسمتها ، فركع حسن على الجذع العجوز يرويه من قروحه الدامية التي تحضنه . وفي صباح اليوم التالي ، كان برعمان أخضران يتفتحان حيث كان الوشمان على غمازتيها . وقد أخذا يكبران يوماً بعد يوم ويتفرعان ، ومن أطرافهما كانت تسقط عند كل صباح دمعتان ، على قروح حسن التي أقعدته تحتها ، فتشفي عند كل صباح قرحتان .

أما نحن الصغار ، فلم نعد نرى حسن الحراث على درب الجبال ، حيث كنا نلقاه لنعرف منه أخبار ام الخير .. وكلما كبرنا ، كانت تكبر من بعيد تلك الشجرة التي نبتت في قريتنا ، حتى أصبحت تحتضن بأغصانها الخضرة بيوت القرية كلها !!

facebook.com/the.Boooks

الفرس

– صحيح بدك تبيع الفرس بكره يابا ؟

فالتفت بو حسين باستغراب الى ولده ، الذي كان يقف بباب القبو ، وعلامات الدهشة والسؤال ما زالت تشع في عينيه الواسعتين اللتين أخذتا تبتعدان عن وجهه الصارم ، الى ان استقرتا اخيراً على أرجل الفرس الواقفة امام مذودها ، وهو لا يزال يتمتم ...

– اسمعت امي بتقول لجارتنا ام احمد .. عمت عيليها من العياط عليها !

حوّل بو حسين وجهه عنه ثانية، دون أن يجيب على سؤاله بكلمة او حتى بايماءة بسيطة . واستمر في ملء تنية قمبازه بالشعير المتهيل ببطء من فتحة احدى الخوابي الطينية ، التي تبدو وكأنها جزء من جدار القبو، بينما خرج حسين الى اخوته الصغار الذين كانوا ينتظرونه في باحة الدار ، وراح يوزع نظراته الكسيرة ويزرع في اعينهم المتعلقة به ، مرارة الاخفاق والخيبة .

facebook.com/the.Boooks

وما أن ملأ ثنية قمبازه بالشعير ، حتى اقترب من مذود فرسه التي كانت تهمهم باستمرار ، فنثره فوق ما في المذود من تبن ، وراح يخلطه به جيداً ، وقد حرص في هذه المرة ان تكون كمية الشعير ، اكثر مما اعتاد ان يقدمه لها دائماً ، إذ عليه الوصول الى المدينة مبكراً ، وعليها ان تسير بسرعة كي لا تفوته السوق فلا يستطيع بيعها !

اقترب من كوة صغيرة فوق المذود ، وهو ينفض ما علق فوق ردنيه من ذرات التبن ، بعد ان فرغ من خلط العلاف في المذود ، وتناول من داخلها محسّة خشنة ، راح يزيل بها بقعاً صفراء جافة ، خلفها الروث على شعرها الأشهب الجميل وما كادت يده تتزلق بالمحسة الى متنها ، حتى كانت تتوقف فجأة ، وقد سرت في عروقه رعشة باردة عجيبة ، وهو يحس بألم عميق يتحرك في قلبه ، كذلك الألم الذي يشعر به كلما آلم احد اطفاله عفواً وهو يداعبه بين يديه الكبيرتين ، فتموت بهجة عينيه البريئتين ، ويشع فيهما ألم حائر ، ما يلبث ان يخيم بصمته على قسمات وجهه الملائكي الصغير !!

وطفق ينظر بأسف واشفاق ، الى ذلك الانتفاخ البارز عند اعلى متنيها ثم مد يده الأخرى تتحسسه بترفق ، كي لا تؤلم هذا التكور ، الذي قد يحوي في داخله ، مهرة شهباء جميلة كأمها . . فكم سيسعد ابناؤه إذن ، لو انها ولدت مهرة !! ولا سيما حسين الذي لا ينفك يترقب ذلك اليوم الذي

facebook.com/the.Boooks

ستلد له فيه الفرس مهرة ، تكون في احـــد الايام كفرس « أبو زيد الهلالي » ، أو مهراً أدهماً محجلاً ،وعندها سيسميه « الابجر » ، كي يصبح قوياً سريع العدو كحصان عنتره ، الذي طالما كان يحدثه عنه جده ، حول الموقد في ليالي الشتاء! أما هو فكم يود لو انها تلد له مهرة لكي يربيها بنفسه ويرى حسين يمتطيها لأول مرة بعد عامين ، حين يكون قد أصبح شاباً قوياً .. ولكن لا ! فانه لن يسمح له عندها بامتطائها ، إلا بعد أن يطوعها هو بنفسه كما طوّع أمها ! فليس من السهل تذليل مهرة عنيدة لأول مرة ، ولا يستطيع ذلك إلا رجل مجرّب يعرف طباع الخيل ونزواتها مثله !

انحدرت راحته الخشنة على بطنها رويداً رويداً الى أن استقرت عند أسفله ، وتسللت أصابعه الغليظة الجافـــة الى ثدييها ، فأدهشه ذلك الانتفاخ الشديد ، وخيـــل اليه انهما يكادان ينفجران فأخذ يتحسس حلمتيها برفق ، علّه يستطيع تخمين ما بقي لها من مدة حتى تلد . ثم ما لبث أن انتصب واقفاً ، واقترب من المذود ماراً براحته على عنقها ، وشرع يحرك العلاف أمامها ثانية ، وقد خيمت على وجهه سحابة من الحزن ، واغرورقت عيناه الكليلتان بالدمـوع ، إذ ما فائدة كل ذلك ، وماذا يهمه ما ستلده ، ما دام سيبيعها غداً ؟ورنّ في أذنيه صوت ولده الكسير : « صحيح بدك تبيع الفرس بكره بابا » .

facebook.com/the.Boooks

جلس على حافة المذود يلف دخينة بأصابعه المرتجفة ، علّه يخنق غصاته بدخانها ، ثم راح يمسح آثار الدموع بطرف قميصه المقلم ، خشية أن تلحظ عليه أم حسين ذلك ، فيزيد مما تقاسيه من ألم لذلك المصير التي ستؤول اليه جميع العائلة ، فها هو آخر أمل في الحياة يكاد يموت ! فغداً سيبيع الفرس ! إذ ما فائدته منها بعد أن صودرت أرضه ، ولم يبق منها غير قطعة صغيرة ، لا تردّ عن أبنائه غائلة الجوع ، ورغم كل ما حاوله لاسترادادها فإن أحداً لم يصغ اليه ، إنه القانون ! هكذا أجابه المسؤولون ، ولكنه لا يكاد يصدق ذلك ! ! أيفقدها حقاً وبمثل هذه السهولة ، لقد أفنى العمر من أجلها ، وجبل ترابها بعرق جبينه الذي سفحه على أديمها الطيب شقاء السنين الطويلة ! ؟ تراهم حقاً لا يستطيعون شم رائحة جسده المنبعث من خلالها ، كما يستطيع هو ! ألا يعود لحمل فأسه إذن ، والتنقل بين حقولها الخضراء والفرحة تداعب نفسه وهي ترقص مع أنسام الربيع حوله ! وأيام الحصاد ! ألا تعود أيضاً حين تصفر الحقول ، فيهرع مع زوجته وأولاده ليلموا بمناجلهم ، سنابل القمح المباركة ، وتعمر بها ساحة الدار ، والسعادة تملأ عليه عالمه ، وهو يرى أولاده يتواثبون بفرح فوق بيدرهم ! ؟ أينتهي كل شيء ؟! أن تنزع منه حياته التي تعودها ودفعة واحدة !؟ كيف؟ وما الذي سيفعله بعد ذلك ، فالشيب قد جلل رأسه . وأولاده من يعيلهم ،

facebook.com/the.Boooks

ليس باستطاعته أن يقوم بأي عمل غير الأرض ؟ كلا ... لن يحدث هذا ، ولا بد لأبنائه أن يواصلوا الحياة الـــتي منحهم إياها ، وما دام هو الذي منحهم إياها فلا بد له من الأخذ بأيديهم حتى يخرجوا بها الى النور ! فالفرس لن يبيعها .. والأرض؟ لن يسمح باغتصاب ولو شبر واحد منها . لقد كافح الكثير من أجل الاحتفاظ بها ، لقد عانقها في جحيم الحرب حيث هجر معظم الناس أرضهم ليبقى في قربها ، وسيعانقها الآن مرة أخرى الى أن يلفظ عليها انفاسه ، اما ان يتخلى عنها فهذا مستحيل ، ولا بد له من ان ينتصر في النهاية !

انطلق صوت ام حسين يدعوه للعشاء ، فنهض من مكانه ، واتجه نحو باب القبو بعـــد ان ربت على عجزي الفرس بود حـــزين ، ثم اغلق الباب بعد ان ودعها بابتسامة مطمئنة ، ليلقى بها ام حسين التي كانت في انتظاره بين ابنائها حول مائدة العشاء .

وعند منتصف الليـــل ، بينما كانت ام حسين وصغارها يغرقون في عالم احلامهم كان بو حسين يضم الى صدره في مذود القمر الساهر على باب القبو مهرة شهباء ، وقد اطبق شفتيه بحنان فوق جبـــين أمها ، التي أحنت رأسها برفق ، لتطبع أول قبلة على غرتها الجميلة !

facebook.com/the.Boooks

السبع

كنت لا اعود من نزهتي المسائية ، التي تعودتها ، عبر روابي القرية وكرومها كل يوم .. إلا بعد ما يلفع المساء بيوتها الطينية المتراصة ، بعباءته الرمادية ، واجراس الاغنام تغمر بانغامها الريفية دروب عودتي ، وهي تؤوب رضية خلف كبشها .

ولا ادري السبب الذي كثيراً ما كان يجعلني لا احول ناظري ، عن تلك القبور المنتظمة على جانبي الطريق كلما مررت ، اوزع نظراتي على شطريها بالتساوي ، كما افعل عندما امر وسط القرية ، فالتفت الى كل مجلس امر به ، ملقياً على رجاله التحية ، حتى امر بآخر قبر ، فاشيع جميعها بنظرة الى الوراء متابعاً سيري .

وما اشد دهشتي كانت ، حين وقع نظري ذلك المساء فجأة على حلقة من النساء يتجمعن حول قبر ابيض لم يبد لي منه غير جزء بسيط ، حين كنت انتقل بنظري بين تلك

facebook.com/the.Boooks

الأكوام الترابية البالية ، وكأنني ابحث عن شيء كنت قد فقدته بينها ، بل وهذا الشعور بعينه ما كان يلازمني دائماً ، إذ كان يخيل لي حقاً ، إنني قد فقدت بينها شيئاً كلما مررت.

وشعرت بتلك القشعريرة الباردة، التي تتملكني كلما شيع اهل قريتي راحلاً جديداً عنهم ، الى هذه القرية الترابيةالهادئة تسري في عروقي ، فوقفت انظر اليهن مشدوهاً ، لا استطيع تفسير وجودهن المفاجيء بين هذه الاجداث ، ترى هل شيع اليوم اهل القرية ، راحلاً جديداً الى هنا في غفلة مني ؟ واين كنت تلك الساعة !؟ ولكن لا .. لا يمكن ان يكون هذا!! انني لم اغادر القرية هذا اليوم قط ، بل ولم افعل ذلك منذ اسبوع ! كما ولم الحظ اي اثر للدموع يجول في عيني امي ،وأن كان يبدو عليها شيء من الحزن الصامت .. فلو أن شيئاً من هذا قد حدث حقاً ، لما كانت تبخل بدموعها الغزيرة ، ككل امرأة في القرية في مثل هذا الحال ، ولما كانت تتأخر اختي الصغيرة ، عن اسراعها إلي لتبلغني ان ابا فلان او ابا فلانة من اترابها صغار القرية ، وضع يديه على صدره ، واغمض عينيه ، درن ان يتكلم ، وان نساء القرية يمزقن ثيابهن ، وينتفن شعورهن حول فراشه ! إذن فما كل هذا الجمع من النساء !؟ وهل يمكن ان يكون خميس الاموات ؟ ولكن لو صح ذلك لما كانت المقبرة تخلو من اسراب الصغار الذين يتواثبون بين هذه القبور ، يختطفون اقراص الحلبة من ايدي النساء ، والبيض المسلوق يقامرون به !

facebook.com/the.Boooks

ولم تتح لي نظرات الحاجة زهرة ، التي كانت تميل بجسمها نحوي وهي تطلي اطراف القبر بالحناء، ان استمر في تأملي،أو أن احاول التأكد من انه يوم خميس ذلك..إذ راحت تنظر إلي باشمئزاز واضح ، وكأنني اتيت بشيء منكر لوقوفي هكذا على الطريق ، والنظر اليهن بمثل هذه الوقاحة فسرعان ما تابعت سيري ، انقاذاً لنفسي من ورطة حتمية الوقوع بلسان الحاجة زهره ، لقلة ادبي وفضولي ، اذا ما اجترأت على الاستمرار في الوقوف ، ولو للحظة واحدة ، بعد ذلك الانذار الذي وجهته الى بنظراتها الصارمة .

وما كدت أمر بآخر قبر في التربة ، حتى كنت اشيع اكوامها ، والحاجة زهرة بنظرة حزينة ، كانت اطول نظرة القيها في حياتي على هذه القربة الوادعة ، ودمعتان ساخنتان ، تحتبسان في خجل البكاء عند رجال قريتي على راحليهم ، وقد تتراقص من خلالهما على انكسار اهدابي ، صور قصة قديمة ، كانت طالما تحدثنيها جدتي في طفولتي،في مثل هذا اليوم من كل عام،بعد عودتها من رحلة الحزن في المقبرة ، وتداعب احلامي الصغيرة،بأنغام كلماتها الهادئة الموقعة،وانا أستسلم لحضنها الدافيء في نور القمر،المطل من على عريشة دارنا من خلف غيوم الخريف قبل اعوام مضت،هذه القصة التي كادت تزول من ذاكرتي بعد غياب اعوام خمس عن قريتي واهلها .. وحكايا الراحلين عنها. لا سيما حكاية سالم ،الذي سرعان ما ارتسمت صورته الجميلة في

facebook.com/the.Boooks

مخيلتي،حيث ثبتتها جدتي في حديثها عنه،تلك الليالي القمراء، يوم ان جف نبع القرية قبل اربعين عاماً،في مثل هذا اليوم من ايام الخريف الشاحبة،وقد اجتمع اهل القرية حول نبعهم الغائض والاسى يطفو على وجوههم الجافة ، لا تخرج اليهم دلاء الحنانة بغير الوحل الأسود ، فيضرعون إلى الله كي يرفع عنهم غضبه، ويعيد اليهم نبعهم ، من أجل أطفالهم الأبرياء الذين جفت حناجرهم ومن أجـــل ماشيتهم المسكينة ، التي تغمر القرية بثغائها المبحوح ، تشكو ظمأها .

تقدم سالم من فوهة النبع ، وهو يحمل مجرفته بيده، مهيباً بأهل قريته ، أن يشدّوه إلى الحبال ، وان ينزلوه إلى قعر النبع ، علّه بمجرفته يستطيع أن يجمع بعض الماء في حفرة ويخرجه اليهم ، بينما راح أهل القرية يلتهمونه بنظراتهـــم المشدوهـة ، لا يصدقون ما يرون من ابن قريتهم سالم ، ذلك الفتى راعي الأغنام،ورغم ما يعرفونه عنه من شجاعة واقدام، إلا أنهم أبوا عليه تعريض نفسه للهلاك ، بأيدي تلك الاشباح الرهيبة ، التي أحلها الله في النبع لتمسكه عنهم،والتي ستمزقه حال وصوله قعره شر ممزق ، لاعتراضه على مشيئة الخالق ، وتحدي جبروته ! وكادوا يترددون في الاذعان ، إلا أنه كان يزيد في الحاحه عليهم لانزاله ، غير آبه بكل ما يزعمونه عن غضب الرب ورهبة الأشباح ودون أن يلتفت إلى توسلات والديه وانتحابها ، اللذين كانا ينتظران يوم زفافه في الموسم القادم .

facebook.com/the.Boooks

وما أن وصل سالم قعر النبـــع ، حتى راح يصيح بأهل القرية ، أن يخرجوا دلاء البكرات ، المملوءة بالوحل الذي شرع في غرفـــه ، وكان كلما أخرج دلواً من الوحل ، يشعر وكأنه سيفرض سلطانه على هذا النبـع ،ويفجره بقوة ساعديه ، وانه سيحطم كل الخرافات والأوهام ، التي تعشش في عقول أهل قريته ، وتوهن قلوبهم ، فيشد على مجرفته بيديه القويتين ، وهي تغوص في الوحل ، وحرارة الأمل في وصوله إلى الماء تشع في عينيه الحادتين .

ولكن هذا الأمل في الوصول إلى الماء ، كان يخبو في قلوب أهل القرية ، كلما طال عليهم الوقت . ودلاؤهم لا تزال تخرج اليهم بالوحل ، فراحوا يهيبون به من أعلى ، أن يشد نفسه إلى الحبال كي يخرجوه ، بينما كان هو يغوص بمجرفته في الوحل شيئاً فشيئاً ، صاماً أذنيه عن صيحاتهم ، وكأنـه لم يخلق إلا لأن يسترجع هذا النبـع الغائض وتفجيره بقوته ومشيئته ، لـكي يبعث الحياة في قريتنا الظمأى من جديد ، يبعث نبعها وإلى الأبد !

وانطلقت أخيراً صرخة النصر من حنجرة سالم ، حين أحس بالماء يتململ تحت قدميه ، ثم راح يتدفق من شرايين الصخور قوياً جباراً ، فانبعثت صرخته تدوي من جوف الأرض ، لتبعث الحياة والدفء في قلوب أهل القرية ، وهي تبشرهم بالماء ، فراحوا يصرخون به أن يشد نفسه إلى الحبال

facebook.com/the.Boooks

ليضموه اليهم ويعانقوة ، إلا أن صرخات سالم ، كانت أقوى بكثير من صرخاتهم جميعاً ، وهي تنطلق من جوف الأرض مدوية ، لترتفع إلى السماء بقوة وتحد عنيد .. الماء .. الماء ! إلى أن خبا ذلك الصوت الجبار وغاب في طيات الماء المتدفق من تحت قدميه ، ليحل مكانـــه صمت حزين ، فيعفر تلك الوجوه بالحزن والأسى ، بعد أن لوحها للحظة ببهجة النصر والحياة .

وحين كان المساء يلفع بيوت قريتنا بعباءته الرمادية الحزينة ، وأجراس الأغنام تغمر الدرب أمامي بجلجلات الأسى خلف كبشها عائدة ، رقصت في خاطري ، صور نساء القرية وانا بعد طفل صغير ، كيف كن يملن بجرارهن المزركشة المملوءة بالماء ، على قبر سالم ، المضمخ بالحناء ابداً ، على درب النبـع ، ليسقين قبره بمائه الذي لم يجف بعد ان بعثه .

ولمحت من البعيد ، عروسه التي اذوتها السنون ، تجلس وحيدة على قبره ، ليزفها قمر الخريف اليه للمرة الاربعين ، في مثل هذا المساء من كل عام ، بعد ان ابت على نفسها البـــناء بغيره ، لتبقى له وحده . فتذكرت ان اهل القرية ، لا يمرون هذا المساء بدربي..طريق النبع ، كي لا يفسدوا على العروسين عناقهما المقدس ، فملت الى طريق اخر ، وحمرة الخجل تلون وجهي ، إذ لم ار احداً من أهل قريتنا ، على هـــذا الطريق غيري .

facebook.com/the.Boooks

الحارس

لعن بو علي ريح الليل البـــاردة بصوت مرتفع ، وهو يصارعها في تدحرجها المتضاعف من أعالي الجبال المحيطة بالقرية ، تجتاح ازقتها الضيقة ، صافعة جدرانها الطينية المتراصة بعصبية ، فيبدو وكأنه نتوء بارز متحرك فيها ، وهو يحاذيها في سيره مجمعاً جسمه الضخم داخل معطفه الثقيل المنتفخ حوله ، حتى أنه كان يضطر لمعاكسة اتجاهها ، كلما توقف عن المسير للتأكد من مصدر بعض الحركات والأصوات التي كانت تحدثها كلما حملت معها نفايا الاشياء التي تصادفها . ثم يتابـع سيره وهو يلعن بصوت واضح تارة ، او يلوك شتيمته بين اسنانه المصطكة مرة اخرى ، هذه الليلة السوداء ، التي لا تمكنه من الطواف في ازقة القرية واطرافها عله انفك من هذه البلية التي لم تخطر له على بال ، بسلام . فليس عبثاً يقول الناس « على بخت الحزينة سكرت المدينة » تماماً مثل بختـه هو : وإلا ما معنى هذه الريح المجنونة وهذه السماء المتلبدة بالغيوم ، وكل هذا البرد القارس ، في عقبته هو ، لو لم يكن عاثر الحظ ، وعليه أن يبقى في

facebook.com/the.Boooks

العراء هكذا طيلة الليل ، من غير أن يستطيع اللجوء إلى بيته ، ولو للحظات يدخل الدفء خلالها إلى جوفه بقدح من الشاي الساخن . وما أن يمر بأنفه طيف البخار المطعم برائحة الشاي ، متصاعداً من فتحـــة الإبريق المزغرد فوق الفحم المتوهج في الكانون ؟ حتى يستشيط به الغضب ، الذي لايلبث أن يتحول إلى لعنات متلاحقة ، يستنزلها على كل حرب في العالم وعلى كل من يسببها ، لأجل هذه الحرب التي حولت هذه القرية الصغيرة الآمنة ، بين مغيب شمس وضحاها ، إلى جارة للموت على الحدود الرهيبة ، وحولت كل رجالها إلى حراس ليل ، الواحد تلو الآخر ، وكل ليلة . والمصيبة أنه لا يفقه لماذا فرضت عليهم السلطات هذه الحراسة ، وممن يحرسون القرية، فليس منواحد في هذه القرية، إلا وله أقاربوأصحاب في جميع هذه القرى المجاورة في الناحية الأخرى من الحدود ، بل وليسمنواحد فيالقرية إلا ويعرف أهاليهذه القرىواحداً واحداً ! ثم أنه لا يفقه أن يحرس القرية من أبنـــاء شعبه ، صحيح أن الحرب فصلت البلاد إلى شقين منفردين ، ولكن هذا لا يعني أن مجرد ما أقيمت الحدود بين هذين الشقين يجعل منهما عدوين ، ألم تفصل هذه القرية عن باقي القرى بالقوة بل وبالاحتلال فلا يكفي هذا ، أنها ترضخ تحت وطأة احتلال شعب أجنبي ليجعلوا منه ومن جميع أبناء القرية أعـــداء لاخوتهم في الناحية الأخرى وكأنهم هم أنفسهم في حالة حرب

facebook.com/the.Boooks

معهم ، لا .. لا فهذا أكثر مما يستطيع عقله إستيعابـــه وإدراكه ! وإبنته ! أجل إبنته « أين هي الآن !؟ إنها هناك عشرات الأمتار منه فقط ، ولا يفصله عنها غير تلم خطه في الأرض ثور ، لا أحد يصدق ذلك ! إنه يكاد يسمعها تهلل لإبنها ، بل انه يسمعها .. فلا وحق أبعد الحدود وأحصنها تستطيع طمس صوت نغمة ناي قلبه . تستطيع الحدود تقييد رجليه ، أما أن تمنعه من اجتيازها بقلبه ، فهذا مستحيل ، حق ولا جيوش الأرض كلها فخطى القلب الدامية أقوى ، ووقعها لا يعرف الخوف .. باطل عليك يا بو علي! دهر دوار مر عليك وتقلبت دوايره ، والدمع ما عرف لعينيك طريقاً ، وهالقيت يهون عليك قلبك ، وعالشيب تسح دمعتك ! تفـه عليك من دهر غدار ، ما إلك في الشدة صاحب ، لا عـاد الحمام يعرف وين حط فيك بيضه ، ولا الام عادت تستهدي على ابنها !! وبتلوم حـالك يابو علي ، ليش عالشيب بتسح دمعتك !؟ وليش هو انت يابو علي مش بشر ، ومن المي جبل الخالق طينتك .. والا عينيك يعني صارت قزاز ، وقلبك نحاس ، أي هي الشجرة بتعن وجع لما البلطة بتشقها ، كيف انت يا بو علي بدكاش تعن وتنزل دموعـك ، والشجرة من خشب وانت مخلوق من لحم ودم !؟ يالله بتهـــون يابو علي ، واللي عقدها بحلها .. لا .. والله عحلها ماله نيه ، مجنون رمى حجر وميت عاقـل مارده ، والحجر اللي ارتمى هالمرة كل

facebook.com/the.Boooks

عقال الأرض ما بتقدر على رده ! وما عليك أنت إلا الصبر ، الصبر طيب .. وما بعد من العمر قد ما مضى !

وما أنوصل إلى نهاية الزقاق، عند الطرف الغربي منالقرية حتى شعر وكأنه يسير إلى الخلف ، أمام قوة الريح العنيدة ، فحول وجهه متجهاً الى الطرف الجنوبي ، وهو الطرف الذي يجب ان يقلقه اكثر من اي ناحية اخرى ، والذي يستوجب عليه مراقبة دائمة طبقاً للأوامر التي تلقاها من مختار البلد ، هذا المسكين الذي وجد نفسه رئيس حرس فجأة ، ومختاراً عسكرياً ! هالله عليك يا مختار بلدنا ، هاي آخرتك !؟ يا فلان انت عقبتك الليلة ويا علان انت عقبتك الليلة الجاي ! وانت يا فلان خذ بالك ، وانت يا علان مش حدا يفوت البـــلد في عقبتك وانت ساهي ، بتخرب بيت البلد كلها ! باطل عليك يا مختار بلدنا .. باطل عليك باطل !

نزع بندقيته عن كتفه ، وهو يكوّم نفسه خلف جـدار احد التبابين الطينية ، ومـــا ان استقر في جلسته الآمنة من جنـــون الريح حتى وضع بندقيته على ركبتيه المقرفصتين ، ملقياً ظهره إلى الجدار من خلفه .

حمل الدفء المتسرب الىاعضائه النعاس الىعينيه المسهدتين شيئاً فشيئاً . وما كاد يغمضهما حتى قفز مذعوراً ، وهو يجهز بندقيته لاطلاق النار بحركة آلية ، وقـــد التصق بالجدار متفحصاً بعينيه الحادتين ارجاء المكان ، ولكنه ما لبث ان

facebook.com/the.Boooks

تنهد مطمئناً ، بعد ان اكتشف ان ما سقط في القرب منه ، لم يكن سوى علبة فارغة من التنك قذفتها الريح من على السطح . تفه ! لعنة عالوسواس وسبابيه .. مليح الواحد ما بفر عقله من راسه !

عبثاً حاول بو علي ان يطمئن بعدها ، او يستقر مكانه ، وقد اخذت شكوكه تزداد وتتحفز بأعصابه . ترك مكانه وهو يصوب بندقيته الى الامام ، استعداداً لاي خطر قد يداهمه ، وغاب في ازقة القرية ملتصقاً بجدرانها العابقة برائحة طينها المنبعثة من رذاذ المطر المختبىء من سورة الريح بينها .

تحسس بانامله التائهة ، زناد بندقيته ، وهو يحبس أنفاسه متوقفاً فجأة ، بعد ان اخترق لثام اذنيه صوت ناعم مخنوق ، ليس بعيداً منه ، فغير من رتابة اشياء الريح من حوله . فلا بد وان شيئاً ما قد حدث في القرية ! امرأة حاولت الصراخ ، لولا ان شنقت صرختها على شفتيها قبل ان تنطلق ! عليه ان يتقدم اذن في هذا الزقاق الضيق حتى اول منعطف ، دون احداث اي حركة تدل على وجوده ، عله اكتشف مصدر تلك الصرخة !

تقدم بخطواته الوئيدة المسترقة ، مرهفاً سمعه لالتقاط كل حركة غير عادية قد تنبعث اليه من أي مكان ، الى ان ادرك اول منحنى يعرفه بغريزته . وقف عنده منصتاً بكل حواسه ، إلا انه لم يشعر بأية حركة خفية تعقب تلك الصرخة المشؤومة !

facebook.com/the.Boooks

او يسمع أي صوت آخر ! اذن لعله كان مخطئاً في تخمينه ، وربما لم يكن ما سمع سوى صوت طفل يعيش في عالم احلامه الساذجة ! او رضيع نهش الجوع معدته الصغيرة ، فأسكت ثدي امه الساهر صراخه ! هه !؟ ثمة عويل خافت ينبعث من بيت بو سليمان ! لا بد وانه قضى نحبه في هذا الليل ، او ربما تشاجر مع ام سليمان ، فأسكتها بضربة من بسطاره الثقيل الذي يتوسده . عادته كلما تشاجرا ، فراحت تندب بختها الاسود الذي جمعها به ! ولكنه لن يسكت له هذه المرة ، بل وسيهين كرامته على هذه الفظاظة والقسوة التي يعاملها بها ، هذه المرأة طيبة القلب ، التي لولاها لما كان في القرية كلها أحد يعتبره ، والتي وافقت على زواجها منه رغم شيب لحيته التي تشبه لحية التيس ، بينما كانت هي لا تزال مثل الغزال . انه لم يعد يخجل قط ، أو ربما ألم برأسه العنيد جنون محتم ! حتى أمسى يقلق راحة الناس بشتائمه الفظة في منتصف الليل ! اما إذا لم يعتذر لها ، ولم يوافق على مصالحتها فسيصفعه أمامها ، كي لا يجرؤ على رفع عينه بها ، بعد هذه المرة ، بل وسيأخذها إلى بيته دخيلة عليه ، بعد أن ترمي له باطفالها السبعة في وجهه ، ولن يدعها ترجع اليه حتى يأتي بالمختار وجميع وجوه القرية ، ليتعهدوا له جميعهم بأنه لن يعود إلى شتمها وضربها قط ! فهو يعرف جيداً ، وجميع أهل القرية يعرفون ، ان بو علي لا تسقط له كلمة على الأرض بتاتا !

facebook.com/the.Boooks

تقدم من بيت بو سليمان، ثم توقف ثانية مرهفا سمعه جيداً، فانتقل اليه صوت أم سليمان عبر الباب واضحاً هذه المرة ، رغم خفوته ، ورغم شخير بو سليمان المتعالي فانفرجت شفتاه الغليظتان بضحكة عريضة صامتة حلت عنهما لثام كوفيته الحمراء ، إذ كانت أم سليمان تهدهد رضيعها تلك اللحظة بصوتها الصافي ، لترجع النوم المفقود إلى عينيه ، مما جعله يطمئن إلى أن تلك الصرخة التي سمعها وأقلقت راحته لم تتعد بيت بو سليمان . إذن فلم يذهب حقده عليه سدى وعلى الرغم من أنه لم يكن السبب .

شعر بو علي بحنان دافىء عميق يدغدغ أبوته ، وقد نفذ صوت أم سليمان العذب ، الطافح بالأمومة إلى أعماق قلبه ، فابتعد عن الباب بهدوء . وفي عينيه تتراقص صورة ذلك الرضيع ، يداعب النوم أجفانه الناعسة ، ورجع ذلك الصوت الحنون الذي راح يلون الليل بالحب، ما زال يتردد في أذنيه . وأحس بشوق عارم إلى رؤية وجه حفيدته الصغيرة وهي تغفو على صدر أمها المرتلة لها أناشيد المهد العذبة .. فقاده ذلك الشوق إلى سر بيته المقوس في منتصف الزقاق حيث يقيم ابنه وزوجته معه في نفس البيت وصعد درجاته القليلة ثم اتكأ على حافته طويلاً وكاد يطرقه غير انه عاد وابتعد عنه بهدوء وهو يحس وكأن أنفاس حفيدته الهادئة تنبعث في جوف الليل بسلام ، لتبعث الدفء إلى قلبه في برد الريح التي تصفر

facebook.com/the.Boooks

في جنبات البيوت ، وتصفع أبواب المنازل بعنف وقسوة .

* * *

استظهر الجدار ، وهو يلقي بندقيته بتراخ على ركبتيه ، وكاد يستسلم لهزيج الريح وزفزفات المطر من حوله ، إلا أنه ما لبث أن سمع طلقات رشاش خافتة ، تنبعث متقطعة من وراء الجبال المحيطة .. فارهف سمعه عـــله يخمن مصدرها ولكنها كانت قد خمدت مخلفة وراءها صمتاً رهيباً .. أحس خلاله وكأن زفرات متأوهة تملأ الليل عليه ، وهو يحول نظره بآلية إلى بندقيته وبريق خافت من الحزن والأسى يشع في عينيه .. أيه .. أيه! لا بد وقنديل انطفا بها لليل . وقنطرة من قناطر هالعقد الكبير عتمت ! يا شهيد الشوق عليكرحمته، غريب متت وجفونك ما تسبلت ، شو يدريك شوقها لشوف الأحباب جوا الحدود طفا نورها ! ما مثلك اللي مثلي . قلبك أنت جوا الحدود .. وقلبي أنا وراها . وشو يدريك أي يوم الحقك !؟ يا شهيد الشوق عليك رحمته .

* * *

لم يعد يحتمل النظر إلى بندقيته الراقـــدة في حجره ، وأحس وكأن عصبة من الليل تشد على عينيه بوحشيه ، وأن جيشاً من الخوف يزحف إلى قلبه الذي راح يخفق بشدة ، فإنها

facebook.com/the.Boooks

المرة الأولى التي يشعر فيها بمثل هذا الخوف في حياته ! لقد كان مضرب المثل بالشجاعة لجميع رجال القرية ، حتى أنهم أطلقوا عليه اسم « بو علي » إقراراً منهم بشجاعته وبأسه ! كما وأنه كان يشعر بالعزة والعظمة ، حين كان يتخطر بين رجال قريته ببندقيته محزماً بالبارود ، أو كلما كان يمتطي صهوة الأدهم مع الثوار الذين كانوا يحاربون المحتلين الانكليز ، وهو في سن الشباب .. حين كانوا يغيرون على معسكراتهم لعدة ليال متتالية ، دون أن تداخله ذرة من الخوف ولا تهتز له خاصرة ، حتى عندما كان يخترق سور الجنود المقام حول الساحات المعلقة فيها جثث المشنوقين من الثوار ، واختطافها تحت وابل من الرصاص ولولا الخيانة التي بددت الثورة ، لما كان يرمي بندقيته حتى يرى آخر انجليزي يرحل عن بلاده ، أما الآن فانه لم يعد يحتمل النظر إلى هذه البندقية ! فمجرد وجودها بين يديه يبعث الرهبة في نفسه ! مجرد غلطة بسيطة يرتكبها تكفي لجر الموت خلفها ، هذا الموت الأحمر الذي سرعان ما سيندلع من أفواه رشاشات وبنادق الجيش المنتشرة على بعد أمتار قليلة من القرية ، التي حتم عليها أن تعيش في خوفها الدائم من الموت البشع ، الرابض على الحدود القريبة .. أجل . غلطة تافهة ! يدفعه الشك والخوف من شيء تافه ، أو ربما من لا شيء غير الريح !؟ وعندها يستيقظ الموت على الحدود ، ثم لا يلبث أن يمتد بمخالبه نحو القرية في الليلة المجنونة ، التي لا يكاد يرى الانسان فيها نفسه .. فيقتحم

facebook.com/the.Boooks

الباب على حفيدته الصغيرة لينتزعها عن ثدي أمها ، وربما على أحفاده في الناحية الأخرى من الحدود ، وعلى أم سليمان ليصمت ترتيلها ذلك الذي لا يزال يسمعه ، بل وعلى جميع الأطفال في كلا الجانبين من الحدود ، وينتزعهم سلام نومهم على صدور أمهاتهم الدافئة ، وهي تبعث في قلوبهم الصغيرة نور الحياة ! كلا .. كلا ! انه لا يستطيع أن يتصور ذلك يحدث لابنائه ، منتهى الفظاعة . مجرد أن يفكر في مثل هذا ! وان يستمر في النظر هكذا ببلاهة إلى هذا الشيء البشع الراقد على ركبتيه ! فلماذا لا يقذف به إلى الجحيم !؟ أو إلى أي مكان آخر يريحه من النظر اليه والتفكير فيه !؟ عندها فقط يستطيع الجلوس هنا حتى الصباح ، ودون أن تتسرب إلى نفسه ذرة من الخوف ، بينما يستمر أهـــل القرية في نومهم الهادىء .. ويغرق أبناؤه في عالم أحلامهم الصغير ، وعلى ثغورهم ترف بسماته ، وحتى الصباح .. أجل ! فكلهم ابناؤه وعليه القيت مهمة حراستهم ، إذن فسيحرسهم وكما يريد هو أن يحرسهم ! بل انه أب لجميع الأطفال في هذا العالم ، ويتمنى لو يكلف بحراستهم ورعايتهم جميعاً !

نظر حوله ، وقد اطمأن إلى هذه الفكرة .. أجل ! فانه سيخفي هذا الشيء في أي مكان يريحه منه حتى الصباح ، حيث يعيده إلى المختار ولن يعود إلى حمله أبداً ، وسيخبره انه سيستبدله بعصا ، سواء رضي أم لم يرض . بل سوف لن

facebook.com/the.Boooks

يستبدله بأي شيء سوى قلبه . ولكن أين يخفي هذه البندقية الان ، وماذا سيفعل بها ؟ ربما في كومة الزبل تلك ! نعم ! فليس اسهل من ان يدفنها في هذه الكومة ، ومن الافضل انتزاع البـــارود من خزانها إذ ربما يلعب بها شيطان ما!! فان الشياطين والعياذ بالله منهم ينتشرون في كل مكان، حتى في اكوام الزبل .. كما وان جوف الزبل دائم الالتهاب كالجحيم مما قد يسبب تفرقع بارودها حقا !

نظر اليها لآخر مرة وهو يقف امام كومة الزبل وبسمة من النصر تشع في عينيه ، وسرعان ما كان يجد نفسه يقبرها في جوف الزبل عميقاً ثم عاد الى مكانه وهو يشعر براحـــة عجيبة تحل في نفسه .

كوم بو علي نفسه بارتياح خلف الجدار وهو يجمع جسمه داخل معطفه الثقيل المنتفخ ، بعيـــداً عن مجرى الريح التي كانت لا تزال تضاعف من هبوبها متدحرجة من اعالي الجبال ، فتصفع وجه القرية بعنف وقسوة ، وسرعان ما اخـــذ النوم يداعب اجفانه ، ثم مـــا لبث ان اغمض عينية في حرارة الدفء ، وهو يضم بين اجفانها وجه حفيدته الصغيرة المتطلعة اليه مداعبة لحيته البيضاء ، بل وجوه جميع الأطفـــال في القرية .

facebook.com/the.Boooks

الديك الضائع

انتشل علي احـــد الاعواد اليابسة ، من حزمة الحطب المسندة الى قن الدجاج . امتطاه مزهواً ، وراح يعممه بخرقة بالية حلها من حول وسطه ، لعق مسيل منخريه وجرى نحو البيت القديم حيث جدته . وقف في البـــاب . رشق جدته بمقـــلاع عينيه الضيقتين ، ثم قفز وقعد الى جانب فراشها ، ويداه الصغيرتان ، ما زالتا تعملان في لف الخرقة حول العود باعتناء . نظر اليها وهو يزدرد لسانه الذي كان يساير حركة يديه فوق شفتيه المقفوعتين » .

– افتحيلي يا ستي على ديك الحجة زريفة !

– تأمل ببهجة معبراً بأنامله ..

– ثلاث بيضات .. بتصدقي ؟

انتزعت جدته سبحتها من تحت حزامها المتربع على وتر بطنها الضامر . ثم وضعتها بشكل مستدير امامهـــا مغمضة عينيها الكليلتين استعاذت بالله ، وحصرت عدداً من حباتها

facebook.com/the.Boooks

سود بين انامليها المعروقة ، توقف عن الحركة منصتاً لتمتماتها ..

— الله .. محمد .. أبو جهل .. الله .. محمد .. أبو جهل !

كبت نظرة من الخيبة على أجفانه ..

— نحس ..

عاد يتتبع حركات أنامل جدته المعروقة ثانية ، بعد أن تعاذت بالله ، وحصرت عـدداً آخر من حبات السبحة ، عادت تتمتم بنفس اللهجة الأولى ..

— الله .. محمد .. أبو جهل .. الله ...

— ثلاث بيضات ..

وكاد يقفز من مكانه فرحاً ، لولا أن استبقته جـدته كي تحقق من حظه في المرة الثالثة .. والتي عليها تتوقف النتيجة ، ان كانت قـد انتهت حبات السبحة عند اسم « الله » ز وجل !

جلس مرغماً يتحفز القلق بأوصاله نافذ الصبر . وما أن ادت حبات السبحة ، للانتهاء باسم « الله » في المرة الثالثة ، ق قفز يأخذ العود المعمم بيده ، وعـلامات النصر تشع عينيه .

— أكبر ثلاث بيضات ..

— الله لا يخيب لك رجا يا ستي ..

هرع إلى وعاء النفط ، غمس عمامة العود فيه ، ثم وقف الباب يشعلها ..

facebook.com/the.Boooks

– خذ بالك ياستي من ولاد الحرام .

لمعت عيناه الضاحكتان في لهب المشعلة ، عض على شفته السفلى وراح يضرب أطراف بنطاله القصير بساقيه العاريتين ، ومرعان ما ابتلعته الأزقة الطينية المظلمة ، متبيناً دربه على ضوء مشعلته المتقدة فوق رأسه ، وهو يصيح بأعلى صوته .

– يا سامعين الصوت ، صلوا عالنبي ، يا مين شاف ، يامين لقي ديك أحمر ضايع .. واللي ينكره يقطع ماله وعياله .. يا سامعين الصوت صلوا عالنبي ..

وما أن خرج من الزقاق الذي بدأ صيحاته فيه ، داخلاً آخر ، حتى كان يسبح على بطنه في عفن الزقـــاق ، وهو لا يزال ممسكاً بطرف مشعلته ، وقد انفجرت من حوله ضحكات الأطفال الساخرة الذين تعمدوا اسقاطه ، حين كشف عنهم لأعدائهم في لعبهم .

لمم نظراته المهزومة الموزعة على الأطفال من حوله ، نهض متابعاً سيره ، وهو يلعن في نفسه هؤلاء الأطفال الأشقياء ، الذين لا ينفكون عن مضايقته ، وإلحاق الأذى به ، منذ أن سكن هذه القرية . فليست هي المرة الأولى التي يؤذونه فيها. كان يرد عليهم دائماً بصمته الحاقد ، إلا أن جدته ما تلبث أن تعلم ، فيستشيط بها الغضب الذي سرعان ما يتحول إلى لعنات تستنزلها على رؤوس أهليهم .. راجية لهم من الله اليتم مثله ، وتخليص حقه منهم .. غير أن الله لم يفعل من أجله

facebook.com/the.Boooks

شيئاً ، ولم يمت أب أحد منهم حتى الآن! – ياسامعين الصوت! صلوا عالنبي . . يامين شاف ، يامين لقي ديك أحمر ضايع . .

رقصت في خاطره صورة أمه ، وابتسمت له عينا أخته الربيعيتان تلك التي لم تحرم من قرب أمه وحنانها وتمنى لو أن أمه لم تتزوج بعد وفاة أبيه ، أو انها لم ترسله إلى هـذه القرية ليعيش مع جدته بعيداً عنها . لقـد حرمته من أبناء قريته الذين كان يحبهم ، ويقضي أيامه في اللعب معهم ، دون أن يضايقوه ، أو يلحقوا به أي أذى ، كما يفعل أطفال هـذه القرية . فهو أحسن بكثير منهم ، لقد كانوا يشركونه في كل لعبة يلعبونها ، حتى أنهم كثيراً ما كانوا ينتظرونه خارج الدار ريثما ينهي أكله ولا يبدؤن لعبهم حتى يحضر وينضم إليهم . كانوا يتجمعون كل صباح ليمروا به في طريقهم إلى المدرسة ويذهبوا سوية . وسنية بنت خاله ، تلك التي كانت أول من يمر به من أبناء الحارة . لقد أحبها أكثر منهم جميعاً ، لأنها كثيراً ما كانت تدعوه للذهاب معها إلى كرمهم ، حيث كان يقضي وإياها بقية النهار بعـد المدرسة ، في اللهو بالارجوحة التي نصبها لها والدها هناك . لم يكن يترك تينة دون أن يتسلقها ويقطف أنضج ثمارها ليأخذها معه في المساء إلى أمه وأخته الصغيرة – يا سامعين الصوت ، صلو عالنبي .. يا مين شاف ، يا مين لقي ديك أحمر ضايع .

أما في هذه القرية ، فإن أحداً لم يدعـه للعب معه ، ولم

facebook.com/the.Boooks

يذق حبة تين واحدة منذ أن أتى إليها . كما لم يعد يذهب إلى المدرسة، إذ عليه أن يرعى أغنام جدته ، التي نذرت له عدّة من صغارها ، وتسقيه من حليبها ما شاء وليأوي إلى فراش جدته كلما عاد من المرعى في المساء لتحكي له الحكايا الجميلة وتحدثه عن أبيه عندما كان صغيراً مثله ، ثم ما تلبث أن تأخذ في لوم نفسها ، على سماحها له في الابتعاد عنها وإتباع زوجته التي أبت عليه الا أن ينتقل بها للعيش في القرب من أمها في القرية المجاورة ، ثم يقتل في الحرب بعيداً عنها ودون أن تراه بعينيها . أو تسبل جفنيه براحتيها ..

– يا سامعين الصوت، صلو عالنبي .. ديك أحمر ضايع..

كادت الدموع تطفر من عينيه ، حين لاحظ نور المشعلة يوشك أن يخبو ، وهو لا يزال يبحث عبثاً عن ديك الحاجة زريفة . شعر بالألم ينهش قدميه الصغيرتين الحافيتين ، وأحس باليأس يتسرب إلى نفسه فيخنق صيحاته المتكررة في حنجرته. غير أنه سرعان ما تناسى كل ذلك ، وقد عاده الأمل في العثور عليه ، إذا ما واصل بحثه ، إذ كيف يمكن للناس إخفاؤه ، وهم يسمعونه يدعوهم للصلاة على النبي ! فلا بد وأن يعطفوا عليه ولو من أجل جدته ، إذا لم يكن من أجل النبي، فأهل الحارة جميعاً يعرفونها ، وكثيراً ما يجيئون إلى بيتها كي يعرفوا حظهم !!

– يا سامعين الصوت صلوا عالنبي ، ديك أحمر ضايع..

facebook.com/the.Boooks

تصور الحاجة زريفة تمد له يدها الملفعة بطرف حرامها ، كي لا يمسها وهو يخطف البيضات من يدها ، فيفسد عليهـــا وضوءها ويضطرها للوضوء ثانية. ارتسمت على شفتيه إبتسامة عابثة : لقد سخرت منها جدته ذات مرة ، حين أبت عليه تقبيل يدها خوفاً من إفساد وضوئها ، وهي تحاول اقناعها أنه لا يزال صغيراً ولا يفسد الوضوء .

– يا سامعين الصوت ، صلوا عالنبي ، ديك أحمر ضايع .

إن أحداً لا يريد أن يعترف به رغم ذكره للنبي ، ولا من أجل جدته ، فلا بد له إذن من أن يقول في ندائـه ما كان يريد قوله منذ البداية ، إذ لا بـد له من العثور على الديك ، فسبحة جدته لا تخطىء ، والسبحة أكدت مرتين انـــه سيعثر عليه .

– يا سامعين الصوت صلوا عالنبي ،يا مين شاف يا مين لقي ديك أحمر ضايع ، واللي ينكره يقطع ماله وعياله ، يا سامعين الصوت صلوا ..

توقف عن الجري فجأة ، وقد ماتت صلاته على شفتيه ، وعلامات الحيرة تتراقص في عينيه الضيقتين ، أحس وكأن شيئاً ما يضغط على عنقـــه ، وهو يجيل نظراته الحائرة في الزقاق على ضوء مشعلته الذي أخذ يخبو ، عله يستطيع التعرف على الزقاق الذي دخله .

facebook.com/the.Boooks

خيل إليه أنه لم يمر في هذا الزقاق من قبل أبداً .. فلا بد وأنه قد تجاوز حارة جدته إلى الحارة الثانية ! فلو أنه في حارة جدته لما كان يخفى عليه ذلك .. إذ انه يعرف جميع أزقتها ، فليست هي المرة الأولى ، التي يبحث فيها عن أشياء مفقودة ! إذن فعليه أن يتابع سيره في هذا الزقاق علّه يلتقي بمن يهديه إلى بيت جدته .. بل وعليه أن يجري بكل قواه فالمشعلة تكاد تطفأ والظلام حالك ، وأما الديك فسيبحث في مساء الغد عنه .

ما كاد يبتعد قليلاً ، حتى وجد نفسه عاجزاً عن رؤية أي شيء حوله . وقد انفصل رأس العود المشتعل بعد أن أكلته النار ، وسقط بعيداً عنه .

وجد علي نفسه يغرق في ظلمة الزقاق الحالكة ، فوقف ينظر ذاهل الفكر إلى بصيص الخرقة يخبو ودموع الخيبة النزقة تعفر وجنتيه الشاحبتين . ثم ما لبث أن دعك عينيه لاعقاً مسيل منخريه متابعاً خطواته الضالة في ظلام الزقاق المطبق من حوله .

facebook.com/the.Boooks

ليلة القدر

صمتت تمتمات السبحة المبتهلة ، فمدت سنية يدها الى كتف جدتها الراكعة بخشوع الى جانبها تهزها بيأس ..

– ستي ... إصحي يا ستي ...

صحت جدتها من غفلتها ذاهلة، فصحت معها تمتمات سبحتها.

– اللهم صل على سيدنا محمد.. صاحية يا ستي! ما تخافيش يا حبيبتي ! بس أنا سارحه بذكره، مش سامعتيني بدعيلك.. الله لا يخيبلك رجا يا حبيبتي بجاه هالليله المباركة ..

– هي مطوله يا ستي السما تا تفتح ؟ عيني كلت من السهر!

– هو يا ستي حدا بعرف غيره سبحانه وتعالى .. وليش اسمها ليلة القدر !!... الصبر يا ستي مفتاح الفرج .. اصبري بتنولي .

– هو يا ستي حد في الدنيا صبر مثلي .. سبعتاشر سنة وأنا صابرة ..

facebook.com/the.Boooks

– له يا ستي ! استغفري الله بهالليلة المباركة ، وادعيله يا ستي رحمته واسعة .

رحمته واسعة ، أجل في هذه الليلة المباركة التي من أجلها ما تنفك تنتظر ، منذ أن حل هذا الشهر ، الذي يـــلون دنياها الضيقة بالأمـــل والحياة ، ويبعث النور إلى عالم قلبها المظلم الكئيب فإنهـــا الليلة الوحيدة التي يمكنها أن تعثر على سعادتها فيها!! بل لحظة واحدة منها تجعلها سعيدة إلى الأبد.. ليلة القدر ، التي تنزل الملائكة والروح فيها ! بل أن لحظـــة القدر ، حين تتفق السماء وينبثق من خلالها ذلك النور الآلهي المبارك ، ليغمر الدنيا بالطمأنينة والسلام ويحمل السعادة إلى قلبها ، وإلى قلوب الآخرين من الأشقياء البائسين .. ويمـــلأ عينيها وعيونهم بقبس مقدس منه. ولكن ثمة شيء كلماتذكره ، تشعر برغبة ملحة في البكاء ، بل وتبكي ، وتحس دموعهـــا الصامتة تنحدر ساخنة على وجنتيها .. ويعتمل في نفسهـــا المعذبة شعور قاتم من اليأس والقنوط ! وهي تلك اللحظة التي ستفتح السماء فيها أبوابها !! إذ لماذا لاتفتح هذه الابواب دائماً كي يتاح لدعائها ودعاء الآخرين أن يصعد الى الله في كل لحظة ؟ بل لماذا لا تفتح في جميع ليالي هذا الشهر ؟ بل طيلة هذه الليلة على الأقل ؟ فما الذي تستطيع قوله في لحظة.. في لمحة بصر؟! اذ ما تكاد تنشق السماء وينبثق من خلالها ذلـــك العمود من النور ، حتى تعود وتطبق ثانية ، وأنـى لها حينئذ أن تعرف

facebook.com/the.Boooks

فيا إذا انشقت السماء أم لا ، لتسارع بتوسلها الى الله ليمنحها ما تريد ؟ وحق لو عرفت ذلك ، فأنىّ لها أن تطلب اليه كل ما تريده في تلك اللحظة الخاطفة ، ويستجيب لدعائهـــا كما استجاب لدعاء « أم رمضان » ، التي تسمعها تقص قصتها في كل رمضان ، كيف انها كانت تقضي ليلها ضارعة الى الله كي يهبها مولوداً ذكراً . وفي أحد شهور رمضان ، بيـــنما كانت تضرع الى الله حاسرة الرأس والصدر ، في الليلة السابعـــة والعشرين منه .. إذ انشقت السماء ، وفاض من خلالها نور دافق يبهر البصر ، وكانت لا تزال تضرع وتتوسل الى الله ، فاستجاب لدعائها ، وبعد تسعة أشهر من تلك الليلة وضعت مولوداً ذكراً أسمته « رمضان » ! أو كالحجة « زهرة » التي وهبها الله هي الأخرى جرة من الذهب ، وجدتها تحت عتبة البيت ، فاستطاعت أن تزور قبر النبي ثلاث مرات .

وها هي الليلة السابعة والعشرون تكاد تنقضي ، وأبواب السماء لم تفتح بعد . سبع وعشرون ليلة لم تذق عيناها خلالها طعم النوم ، إلا بُعيد السحر ، حين يثقل النعاس أجفانهـــا المسهدة ويغمضها وشفتاها لا تزالان تهمسان مبتهلتين ، خوف أن تفوتها اللحظة التي تنتظر ، وكذلك جدتها المسكينة التي تقضي ليلها حتى طلوع الفجر ساهرة تصلي من أجلها ! من أجل ذلك الشيء الذي هو أثمن ما تتمناه في هذا العالم ..! فلا جرة من الذهب كالحـاجة زهرة تريد ، ولا أي شيء آخر كالذي

facebook.com/the.Boooks

تطلبه غيرها من الفتيات ، والنساء الأخريات .. فكلهن قد وهب الله لهن ذلك الشيء الذي تصلي هي الآن من أجله وتبتهل كي تكون مثلهن انه النور لعينيها المغشيتين بالضباب القاتم ، لترى به نور الله وهو يغمر العالم في هذه اللحظة التي تنتظرها ، والتي يتحدث الآخرون عنها ، ولكي يبدد من حولها هذا الظلام المروع ، ويرفع عن عينيها هذا الغشاء الأسود الفظيع ! فانها لم تعد تحتمل كل هذا الظلام الدامس فعلى الرغم من انها مفتحة العينين ، فانها لا ترى غير هذا الظلام الدامس الذي يحيط بها .. فلقد سئمت هذه الحياة القاتلة بين جدران هذا القبر المظلم الرهيب ، سبعة عشر عاماً ! وكأن قدرته تلاشت عند هذا .. سبعة عشر عاماً ! وأنات قلبها المزقة تحتضر ببطء تحت ثلج هذه الأعوام الطويلة ورائحة الموت العفنة ، تنبعث من جسدها المترهل الخامل ، حتى أصبحت ثقتها في قدرته تخمد وتتلاشى يوماً بعد يوم ، وكم ستكون تعاستها عظيمة حين يموت في قلبها ذلك الأمل الذي يقترب من نهايته يوماً بعد يوم ، وتصبح تلك الثقة رماداً هامداً .

حسرة عليك يا سنية ما أتعسك .. فها هو ديك الصباح ينعي هذا الليل ، ليل السابع والعشرين ! والشيخ المكلف بايقاظ أهل القرية في السحر ، يرافق بطرقات طبلته الرتيبة صياح الديك بتشييعه الى غير رجعة . وأبواب السماء لم تفتح بعد .. والنوم البغيض شرع يتسلل الى عينيك ليسلبك أثمن

facebook.com/the.Boooks

لحظات حياتك ، وعليك الان رده عنها ودحره ،فليس أروع من أن يعيش الإنسان ويكافح من أجل لحظـــة تهبه الحياة السرمدية ! وما عيشك كله إلا من أجل لحظة .. أجل لحظة واحدة ، سبعة عشر عاماً تعيشين من أجلها ! فهي اللحظـة الوحيدة التي باستطاعتها أن تهبك السعادة الأبدية ، حين تمنـح النور لعينيك ، فتري بهما القمر الجميل ذلك الذي تصفه لـك الفتيات الأخريات ، ويقلن عنه ، بأنه يتهادى كالعروس في السماء ، تزفه النجوم بشموعها المشتعلة من حوله .. وستري وجهك توأم القمر كما تهمس العجائز دائماً في أذن جدتك . انت التي يقلن عنك ، أجمل الصبايا في البلد ، وسليم ابن خالتك ألم يقل لك ذلك أيضاً ، وهو يقترب بشفتيه من أذنك ليهمس لك فيها ذلك السر ، حتى شعرت بأنفاسه الدافئة تلفح وجهك المتعثر بخجله على درب كلماته الجميلة، لقد قال عنه حينها انه اصبح مثل طبق الورد ، وعن عينيك اللتين كانتا تفـران من عينيه اليهما ، قال انه يرى سماء نيسان فيهـما ! لقد امطرت عيناك عندها كالسماء حقا ! وانت تصرخـين في وجهه ليبتعد عنك والأسى يمزق قلبك ، إذ ما نفع عينيك ما دمت لا ترين بهما السماء أو نور القمر .. ولا تفرقين بهما بين نيسان وغيره من الشهور .. بل انك لا تستطيعين حتى رؤيتهما ، أو رؤية نفسك وجمالك الذي يتحدث عنه الآخرون وهذا النفور الذي أخذ يثقل صدرك ويزيد من شعورك برهبة القيد من حولك، وحيرتك

facebook.com/the.Boooks

المغلة ! ! وأين خالتك ما شكله يا ترى ؟ لقد كان صوته جميلاً ، أجمل حتى من صوت والدك الهادىء العميق .

إيه ! مسكينة يا سنية ! أيتها الصبية العمياء زرقاء العينين، ليلة قدر أخرى تعبرك .. وأنت لا تزالين عمياء ! فها هو صوت المؤذن الحزين يغمر الليل وبكاء الريح في الخارج ينبعث اليك خافتاً متقطعاً عبر شقوق الباب على فراق الليل . ونعيق البوم المتواصل ، تتردد أصداؤه في كل زاوية من زوايا هذه الليلة المباركة ، التي لا تزال تمتمات جدتك البائسة وسعال سبحتها تطرق أبواب السماء الموصدة عبثاً .. فكل شيء من حولك يحتضر ، حتى السهر في عينيك يلفظ آخر انفاسه ، وأنت التي تعيشين من أجل لحظة من السهر .. والظلام المروع لا يزال يغمر عالمك ويجثم بصمته الرهيب كالثلج فوق قلبك ، وكأن السماء تتفتق عن عمود أبدي من الليل الممعن في الظلام ، فيحجب بأسدلته الدامسة السواد ، نور الله المنبعث ضئيلاً من زاوية ما من زوايا السماء!؟ ولكنك لن تيأسي يا سنية ، لا بد وأن تري ذات يوم ، ذات ليلة قدر تظفرين بها ، ودون تمتمات جدتك وفرقعات سبحتها المملة . بل لا بد وأن تري الآن . أجل الآن ! فنور القمر يبلل كل الكروم في الخارج وينير كل الدروب التي تحلمين بالتجلي عبرها وحيدة ، يا سنية جميلة العينين ودون أي رفيق يقود خطاك الراقصة عليها .. والضفادع تتغنى بعرس الليل

facebook.com/the.Boooks

على الضفاف الحالمة تشاركك عرس الضوء المنبثق من خلال روحك المعذبة . سيكون ذلك رائعاً يا سنية وأنت تجلسين وحيدة تغتسلين بنوافير القمر ، وساقاك البضتان تعانقان سبسبات الماء المهدهدة . الآن يا سنية .. الآن يا ابنة السابعة عشرة . القابعة في هذا الركن رفيق أعوامك .

– ستي !

– ياروح ستك ! أنا صاحية ياحبيبتي وقاعدة ، بدعيلك الله كبير .

– عصاتك وينها يا ستي ؟

– جنب الموقدة يا حبيبتي .. شو بدك فيها ؟

– بدي أطلع أشوف الدنيا .

– تشوفي الدنيا ؟ كيف بدك تشوفيها بهالليل ياحبيبتي ؟

– الدنيا مش ليل يا ستي . الليل اللي مالوش آخر نهار بصير وصبحه بقلوبنا بطلع .. والعينين اللي بنطفي نورها دموعها عالدروب بتصير قناديل مضوية . أعطيني هالعصا يا ستي .

– لا حول ولا قوة إلا بالله .. الصبر يا ستي ! الصبر مفتاح الفرج .

– ما عدليش عالصبر ياستي .. وان ما فرجتها أنا عحالي مش راح الله يفرجها .

facebook.com/the.Boooks

– استغفري الله يا ستي ! استغفريه ..

– خليك قاعدة .. أنا بتناولها .. جنب الموقدة قلت ؟

– يا ستي اعقلي !

– انت نامي ياستي وما تشغليش بالك علي ..

* * *

احتضنت الكروم المخضرة أقدام سنية التي تمر بها لأول مرة تعانقها .. وفاح أريجها العاطر يقبـــل انفراج البسمة السعيدة على شفتيها القرمزيتين . بينما كانت عصاها الطائمة ، تدق الطريق المبللة أمامها بضوء القمر ، في تقدمها الواثق من عرس الضفاف الحالمة .

facebook.com/the.Boooks

وطني الشقاء

قبل ساعات قليلة.. معذرة!! ربما قبل دقائق قليلة ! كان يستولي علي اعتقاد قاطع ، انني مجنون ، ولست مجنوناً من ذلك النوع ، المجانين طيبي القلوب ، أو أولئك الذين لا بد وأن ينجبهم حي في مدينة ، أو حارة في قرية ، ويصنعهم شارع أو زقاق،وإنما كنت أعتبرنفسي مجنوناً من نوع جديد.. من النوع الذي أصبح الناس يألفونه ، بل ويحترمونه في كثير من الأحيان ! أما لماذا لم أعد أفرق بين الساعات والدقائق ؟ فربما يكون ذلك ميزة منميزات هذا الجنون، أي جنوني! ولما لم يكن ذلك يغير من حقيقة جنوني الذي كان يستولي علي قبل ساعات قليلة ، أو دقائق شيئاً .. فلن نقف عنده أكثر مما وقفنا . أما لماذا قلت جنوني السابق ، فربما لأنني أصبحت أعتقد أنني قد انتقلت من مرحلة جنون ، إلى مرحلة جنون آخر .. إلى جنون أرقى من ذلك الذي كان يستولي علي ، على الأقل في عيون الناس ؟ لما يتصف به من الغرور والكبرياء

facebook.com/the.Boooks

بل ومن الشعور المنتصر .

ومعنى ذلك ، انك تعيش الآن مع مجنون في جنونه .. وربما كنت وإياه في ذلك سواء !؟ وكل ما يأمله منك هو الحد الأدنى من الشعور الإنساني .. في الإنتصار له ! ولو بشعورك بالعطف عليه أو الرثاء له ، ففي شعورك هذا أجمل ما في عالم هذا الجنون !!

ولكي تستطيع فهم جنوني هذا ، لا بد لكلينا من الرجوع سوية إلى عدة سنين مضت .. أو لعلها شهور – أرجو المعذرة – فانني أصبحت والزمان دوماً نظام معين..أو وحدة معينة .. وبالأحرى إنه لم يعد يهمني شخصياً ، أن يكون عندي فرق في ذلك !! قلت لا بد لنا من الرجوع سوية إلى عدة سنين مضت أو شهور !؟ أي عندما بدأت قصة هذا الجنون ، جنوني ! وكي لا أكون لك ظالماً ، إذا كنت ممن يحسبون على الزمان خطاه..سأحاول الإستعانة بتلك الوريقات التي تحتوي على بعض من مذكراتي .. إذ ربما أحصل على شيء من رضاك – وهذا يهمني كثيراً – إذا كنت خطأ وضعت تأريخاً لبدايتها !!

أستميحك العذر! إذ يظهر أنني همت لأفعل ، إلا أنني لم أذكر عندها .. فرسمت عدة خطوط متشابكة ، حول رقم لا أستطيع قراءته ..

* * *

facebook.com/the.Boooks

مساء يوم خريفي كان ذلك..حين كنت أجلس في حديقة المدينة العامة . كنت وحيداً كما اعتدت أن أكون دائماً ، منذ أن شاءت لي الظروف أن أعمل في هذه المدينة التي لم أجد ابخل منها في منح الاصدقاء ، ولو بالنسبة لي على الاقل ، فعلى الرغم من كل الجهود التي كنت ابذلها للعثور على صديق، اي صديق، ولم يكن يهمني ايا من الجنسين هو ـ معذرة ـ إذ ربما اكون كاذباً في هذا ! بل وكاذباً حقاً ، اذ انني عن صديقة كنت ابحث ! عن انثى !؟ علني بقربها اخرج من حياة وحدتي الباردة التي احياها .. غير اني كنت افشل دائماً !! فاخرج الى حيث يعيش الناس ، الى حيث يصخبون ويثرثرون دونما انقطاع ، الى احد المقاهي .. حيث كنت اجد متعة في تتبع حركاتهم ، بل وانصت الى ثرثراتهم . وكعادتي ، سرعان ما كنت املهم ، واضيق ذرعاً بحركاتهم ؛ فأتسلل بصمت ، واخرج الى الشارع، استعرض ما كنت استعرضه كل مساء في واجهات الحوانيت المضاءة ، حيث تستهويني مشاهدة دمى الاطفال المختلفة ، التي تأتي بحركات اوتوماتيكية مضحكة ، كالقرود التي تقرع الطبول ، او تمسح الاحذية.. او بوم يتنقل بعينيه الصفراوين يمنة ويسرة ، فأقف عندها طويلا ثم املها او تؤلمني ساقاي ، فأتابع سيري ، فتغريني في بعض الاحيان صور احد الافلام المعروضة لاجد نفسي داخل السينما .

ويبدو انني كنت قد شاهدت جميع الافلام المعروضة ذلك اليوم

facebook.com/the.Boooks

من قبل، او انني لم اجد ثمن تذكرة للدخول في جيبي، فساقتني قدماي الى تلك الحديقة ، لأجلس وحيداً مع ظلي الذي كان يقعي تحت قدمي . كنت انصت بشرود الى وشوشات اوراق الاشجار ، المتهامسة من حولي مع ريح الليل الباردة ، بينما اتابع بنظري اوراق الاشجار المتسابقة نحو الفناء ، والتي كثيراً ما كان يسقط بعضها في حضني ، او تقف في سيرها المحتوم عند قدمي . فتتعلق بحذائي !

قطع علي شرودي فجأة؛ مواء قطة باك من خلفي. درت بنظري بين الشجيرات المتشابكة وغصونها، واذا بقطة شقراء صغيرة ، تنظر الي وتزيد في موائها ! لبت ندائي بعد تردد ، حين دعتها انامل المصففة ، واذكر اني وددت الابتسام وانا انظر اليها داعياً.. الا انني لا ادري ، اذا كنت قد فعلت ذلك، واذا ما رأت هي ابتسامتي اذا كنت قد ابتسمت حقاً!

اخذتها في حضني مداعباً ، فأنست للمسات انامل المنغمة برفق على زغبها الحريري الاشقر. ما الذي جعلني آخذها اليّ، واسبغ عليها كل ذلك الحنان ، هذا ما لم ادركه عندها!؟ اذ كنت ابغض هذا المخلوق بغضاً عجيباً . وابغض ما فيه علي مواؤه ، وافراطه في توده. وكثيراً ما كنت الاحقه في طفولتي ، لاشبع رغبتي الجامحة في ضربه وايذائه ، حتى انني كنت في بعض الاحيان وخاصة في الاماسي الخريفية، احاول شنق كل قطعة تقع في يدي لا سيما شقراء اللون ، ولم يكن

facebook.com/the.Boooks

لينجيها من ذلك المصير الذي كنت اختاره لها ، غير غضب اختي وثورتها علي . مما جعلني في بعض الاحيان ابغضها ، لما كانت تبديه من عطف على هذا المخلوق البغيض والانتصار له.

لكي لا يراني الناس احملها الى غرفتي ، احتضنها تحت معطفي الطويل على صدري ، مختاراً لكلينا طريقاً قلما يمر فيه احد ، تطير بي نشوة السعادة بهذا الرفيق الصغير معلقاً عليه كل الآمال في تبديد وحشتي ، التي كانت تشاطرني غرفتي

وما ان دخلت بها غرفتي ، حتى وضعتها برفق فوق سريري ، وهرعت الى علبة من الحلوى كنت احتفظ بها. نزعت ذلك الشريط السماوي الذي يطوقها ، وطوقت به جيد صغيرتي التي كانت تخلد بصمتها المستسلم على ركبتي ، وانا اعقد طرفي الشريط بشكل فراشة جميلة تطير ، تماماً كتلك التي تصنعها امي ، حول جديلة اختي الصغيرة قبل ذهابها الى المدرسة او صبيحة عيد ، داعبت فراشتها السماوية الطائرة ، ثم شرعت بتقديم اقراص الحلوى لها . فراحت تلتهمها بشهية الطفل ، بينما كنت اشعر بسعادة نشوى تتملكني تلك اللحظات ، بما كانت تشع به عيناها الصغيرتان من سعادة طفلة وطمأنينة بهذه العناية . ولا اذكر انني قضيت ليلة في هذه المدينة اسعد من تلك الليلة التي كانت الفرحة تغمر فيها فراشي العابق بعطر صغيرتي ، الذي كنت قد ضمخت به شعرها ، ودفيء انفاسها وهي تغفو برفق فوق ذراعي .

* * *

facebook.com/the.Boooks

لاول مرة اشعر انني اصبحت ملكاً لشيء مـا !! لقطتي الصغيرة الجميلة الـتي اصبحت تملـك علي كل ذرة مـن وقـتي وفكري، يوماً بعد يوم ، الى ان عمر فؤادي حبها فأستعبدتني ورغـم مـا انطبعت عليه من مقت شديـد لمثل هـذه الحياة والنفور منها ومن تبرم بهذا المخلوق، الا انني كنت اشعر بشيء من السعادة والرضا لهذه الحياة الجديدة وقد اخـذت آلفهـا وارتاح اليها ، حتى كدت اختفي من حيـاة الشارع والمقهى لاكون بكليتي لذلك المخلوق الصغير ، لرفيقتي الشقراء ، لقطتي الحبيبة حيث كانت تودعني كل صباح لأعـود من عملي فألقاهـا في انتظاري كل مساء ! فتقفز الى صدري بفرحة ملهوفة ، ثم تخلد ألى حضن فراشي فتملأه علي بفوح عطرها ودفء انفاسها وهي تلقي برأسها الصغير على نحري ورفيف من السعادة الطفلة يشع في نظراتهـا الياسمينية المعلقـة بنظراتي الباسمـة المتوردة فأفقد في براءتها ذاكرتي واغيب على صدرها في اغماءة نشوى.

* * *

ثمة شيء قد حدث بعدها ، وتغيير مبهم قـد طرأ على سلوك قطتي نحوي وعلاقتها بي ، فلم يعد وداعها لي في الصباح ذلك الوداع بكل ما فيـه من حب متجدد ! ولم يعد لقاؤها لي في المساء ذلك اللقاء بكل ما فيه من لهفة وشوق مستعرين بل ولم تكن لتفعل ذلك الا بـدعوة مني ، وبشيء من الفتور والتردد ! فأغضب واحترق بغيظي المكبوت ، دون ان اظهر

facebook.com/the.Boooks

لها مـــا يعتمل في نفسي من غيظ ، اذ كنت اشفق عليها من قوة ذلك .. ومما قد يتركه من الم في نفسها الطفلة ، اعتقـاداً مني ان ما ذلك التغير في حياتها ، غير نزوة عابرة لانوثتهـــا المتفتحة ، او لألم يحز في نفسها كذلك الالم الذي قد لا تعرف مصدره ! ككل طفل او ككل انثى في مثل سنها !؟

* * *

صحوت ذات ليلة لاجد فراشي بارداً ، يعمه الخواء ، تماماً كما تعودته قبل لقائها ! فعـدت الى نومـي ثانية وكأن شيئاً لم يحدث ! بل ولم افكر في ان شيئاً ما قد حدث ! الا انني ما لبثت ان صحوت ثانية حين شعرت بأنفاسها المسترقـــة تلفح وجهي وهـي تتسلل الى فراشي وتلقي برأسها الصغير فـــوق صدري . فابتسمت لها ، وانا اشعر بحـرارة جسدهـــا تغمر سريري وتسري في عروقي .

وتكرر ذلك مرات ومرات . اصحو من نومي ، وفراشي يقفر من دفئها . فانتظر حتى تعود لتزحف اليه ثانيـة فتغمره بتلك الرائحة النتنة المنبعثة من جسدها ليـلة بعـــد ليلة .. ولكنني كنت اتجاهل منها ذلك دون ان اشعرها بأنني الحـظ عليها كل ما تفعله علني اعثر على ذلك السر الذي يكمن خلف ذلك التغير المقيت في حياتها !

والليلة عادت صغيرتي الداعرة لتلبي ذلك النـــداء الخفي فينتزعهـا من حضني ، وكنت لا ازال ساهـراً اتقلب فوق نار انتظاري لتلـك اللحظة ، وعنـاكب الشك تمـــزق اعصابي ،

facebook.com/the.Boooks

فتنسج في رأسي الف فكرة للانتقام . والف شعور بالثـــأر لنفسي منها ، فتراودني رغبة جامحة في سحق رأسهـا الخبيث وانتزاع كل ما يكمن فيه من مكر وخداع ! غير انني كنت ما ألبث ان اتردد حين انظر الى ذلك الوجه الملائكي الصغير يستريح برفق وادع فوق ذراعي ، يتصنع النوم .

وحانت تلك اللحظة الرهيبة المرتقبة ، التي كنت فيهـــا اخشى على صغيرتي ، من جنون مفاجىء يعتريني . ومن ذلك الحقد القديم في نفسي لهذا المخلوق ، ان يستيقظ فجأة، بكل ما فيه من عنف منتقم لافعل ذلك اخيراً ، اذا ما تحقق ظني، وتململت صغيرتي ترفع رأسها عن ذراعي لتلبي ذلك النداء المبهم القبيح ، فنظرت في عينيها مبتسماً ، وكأنني اصحو لتوي من نومي ورحت امسح بيدي الراعشة فوق جسمها الناعم وانـا اضغطها برفق الي صدري ، فتستسلم لذلك تصطنع الرضـا .. الا انني كنت اقرأ في عينيها القلقتين تبرمها بملاطفتي وضيقهـا بمداعبتي ، تسترق النظر ناحية النافذة وقلبي يخفق بسرعـــة عجيبة . وشعور بالجنـون اخـــذ يستبد بي . وحانت مني التفاتة الى النافذة لأرى مـا كنت اتوقـع ! حيث كان يربض السرّ البغيض الذي كنت ابحث عنه واتوق لمعرفتـه ، يتقلب بشبقه العارم لجسدها الداعر . ذلـك الشبق الذي كان يسيل من نظراته المصوبة نحوها عبر النافذة ، وهي تستسلم لذراعي متجاهلاً وجودي وكأنني لا اعني بالنسبة له شيئا ؟ فأحسست

facebook.com/the.Boooks

انني اختنق في بريق نظراته الصفراء المصوبة نحوها ! وان رائحة جسدها المتعفنة تحبس عـلي انفاسي لتزيـد من اختناقي ومن جنوني المنتقم منها فوددت لو يدخل على غرفتنا يشاركنا سريرنا لاغرز في عنقـــه اظافـري واعتصر من جسده تلـك الشهوة العارمة لهـــا .

* * *

لا ادري كيف حدث ذلك !؟ و كيف أتممته ! غير انـني اذكر كيف كنت انظر اليه بتشف منتقم . وبهجـــة النصر تخدر اعصابي وهو يحترق بغيظه دون ان يجرؤ على الاقـتراب منها . بينما كنت اضغطها بكل قوتي الى صدري .. رغـــم مخالبها التي كنت احسها تشرّح جسدي .. وتلـك الاهـــات المتألمة التي كانت تختنق على صدري .

ثوان رهيبة كانت ترحف بثقلها الآثم في نفسي ، وذراعي لا تزالان تضغطانها بكل ما فيهما من عنف وقـوة .. وبكل ما فيهما من رغبة في الانتقام ، وعيناها مفتوحتـان ، تتعلقان بعيني دونما حركة .. وقد اخذ جسدها يتراخى .. ويتراخى ، بعد ان انتفضت به رعشة الموت .. !! الى ان اخـذ فراشي يقفر من ذلك الدفء الذي كانت تشيعه انفاسها فيـه ، شيئاً فشيئاً ، الى ان تلاشى ، وشعرت بثلـج خوائـــه السابق ، يتسرب اليه فيملأه علي ..

* * *

facebook.com/the.Boooks

ومنـذ ساعات قليلة ـ معذرة ـ ربما منـذ دقائق قليلة .. اضطجع في سريري والى جانـبي ترقـد صغيرتي الشقراء .. حبيبتي الشقراء على ضوء مصباحـي الصـدفي الصغير ، وانا لا انفك انظر الى ذلك الوجه الملائكي الطفل ، يستريح برفـق على ذراعي ، وذلك الشريط السماوي الجميل ، فراشة تطـير حول عنقها المخملي ، المبلل بدموعي الماطرة حزناً على فراقها ... وانامل النادمة ، تتحسس اطراف مصباحي الكهربائـي الصغير ، تلتمس لي النـوم الأبـدي ، الى جانب معبـودتي الصغيرة .. شقرائي الحبيبة .. و لى الابـد .

facebook.com/the.Boooks

الكلب سمور

كان ذلك صباح أحد ايام الخريف العابسة من عام ١٩٤٥، حين دخلت ام قاسم مخزن القش ، فوجدت الكلبة سمـــورة ممددة فوق القش دون حركة ، بعـد ان وضعت سبعة جراء لم يبق منهـا حياً غير جـرو اسود ، كان يستقبل مولده بالبكاء الحائر ، مثله مثل كل مولود على هذه الدنيا . الا ان بـكاءه كان يطفح بالاسى، او هكذا خيل الى ام قاسم حينها، وكأنه كان يعي بنفسه الطفلة مدى فجيعته بأمه واخوته الذين لم يروا نور الحياة حتى اختطفتهم يد المنون . واي عـذاب قاتـل ينطوي عليه هذا المأتم الذي بدأ به طريقه في هذه الحياة .

سقط السل من يـد ام قاسم وقـد روعها منظر تلك الام الصغيرة المخضبة بدم النزيف ، الذي خضب اطفالها من حولها فأغرورقت عيناها بالدموع ، متذكرة ما مر بها حـين ولدت هي الاخرى ابنها البكر قاسم ، وكادت تفقد حياتها لولا انهم نقلوها الى مستشفى مدينة « جنين » القريبة من القرية ، حيث

facebook.com/the.Boooks

استطاع الطبيب ايقاف النزيف ، اما هذه الام المسكينة فقد قضى عليها النزيف ، وماتت دون ان يشعر احد بألمها في هذا المخزن الموحش .

وصحت ام قاسم على صوت « ابو قاسم » الذي كان قد اخرج البقرات من « الخشة » ليسوقها الى المرعى ، فناداها لتعطية زوادته ، فخرجت وهي لا تزال تبكي فنظر اليها مستغرباً :

– هه .. يافتاح ياعليم ، كنك صبّحت مشتاقة لدار اهلك ؟ حدا صبّح ميت في البيت وانا مش داري بعدني !؟

– الكلبة يابو قاسم ! ما لها الكلبة ؟

– صبحت والدة وميته عَوْلادها .

– لا حول ولا قوة الا بالله .. واولادها طيبين ؟ مش سامع غير جرو واحد بنوص !

– هو فش غيره بعده طيب .

– وكيف بده يعيش هالمسكين . فش ولا كلبه والده بها البلد

– والله مانا عارفة . بنرضعه عالمصاصة .

– اي يالله حطي لي اياها بشي شوال ، تاشوحها في طريقي في الجرف . ونادي على قاسم خليه يروح يفتش له على كلبة والدة ، يحط هالمسكين مع ولادها .

وهكذا اخذ سمور – كما اسماه قاسم – يكبر يوماً بعد يوم

facebook.com/the.Boooks

بعد ان عهد به قاسم الى كلبة احد الرعيان في القرية ، الذي وافق شريطة ان يتعهد قاسم كلبته ، ويطعمها الى ان يكبر سمور وتفطمه ، وقد طفحت نفس قاسم بالفرح لهذا الاقتراح الذي يتيح له الفرصة في تعهد سمور ، وتنشئته على هواه ، ليجعل منه اقوى واعض كلب في القرية كلها ، مما سيبوءه مكان القيادة بين اطفال القرية كلها. ومما كان يشجعه على هذا الاعتقاد، ما كان يبدو على سمور من بوادر الذكاء وحدة الطبع في سلوكه اليومي مع اشقائه في الرضاعة ، الذين كانوا وبدافع غريزي ، يتألبون عليه لعزله عنهم وحرمانه من مشاركتهم اثداء امهم . تماماً كما يعامل كل يتيم في اية اسرة تتبناه ، الا انه كان يفلح دائماً في الوصول الى اثداء مرضعته بالقوة احياناً وبالحيلة احياناً اخرى ، وعندما كان يدخل باحة الدار غريب ما ، او اي حيوان ، وخاصة اذا كان ذلك الحيوان قطاً ، فأنه كان اول من يهر عليه من بين باقي الجراء التي كانت تتبعه نابحة ، الى ان يخرج قاسم ويسكته اذا ما كان احد ابناء القرية ، او الى ان يطرد الحيوان من باحة الدار ، متخذاً لنفسه دور القيادة دائماً .

وكان قاسم يراقب ذلك منه بارتياح ، راضياً عن هذا التوجه الذي سيجعل منه دون شك ، الكلب الذي طالما حلم باقتنائه .

اصبح قاسم كثيراً ما يتعمد اثارة سمور وايذاءه الى ان يثير

facebook.com/the.Boooks

غضبه ، فيكشر عن انيابه مهمراً ، ثم يلحق به محاولا عضه بل وحدث مرة ان عضه بالفعل ، ولم يترك ساقه حتى ادماها مما جعل قاسم يرقد في الفراش يومين كاملـــين ، متحملاً شتم والده له واهانتــه كلما دخل عليــه في البيت ورآه راقــداً في فراشه ، بل وكثيراً ما كان « بو قاسم» يتشاجر مع زوجتــه لسماحها لقاسم باقتناء سمور ، مقسما لها ان ابنها سيختل عقله او انه سيرمي نفسه بمصيبة كبرى بسبب هذا الجرو الذي اخذ له عقــله .

اما قاسم فرغم لزومه الفراش ، ورغم ثورة ابيه عليه . الا انه كان يزيد تعلقاً بسمور ، ولا ينفك عن ترديد اخبــاره وما فعل به بنغمة ملؤها السعادة والفرح ، راضياً عما فعل به لانه اذا كان فعل ذلك معه فكيف مع الاخرين اذن . وكان برهاناً كافياً على ان سمور سيصبح كلباً مرموقاً يهــابه جميــع اهالي البلدة، وكل من تسول له نفسه الاعتداء عليه او على البيت

وقبل ان يبلغ سمور سن الرشد كان قد فقد مرضعته بعد ان لدغتها حية فقضت عليها ، ففقد اثرها اخوته الذين غادروا البيت الواحـد تلو الآخر ولم يرجعوا . ممـا أثر في نفس سمور الذي كان يقضي لياليه نائحاً، مما جعل قاسم يفكر في التخلص منه لولا انه يشعر انه سيشارك في تعميق مأساة سمور ، الذي سيصبح لو فعل ذلك ، بلا احد في هذه الدنيا ، ورغم مـــا تعرض له من ضغط شديد في البيت للتخلص منه لشد ما اصبح

facebook.com/the.Boooks

يزعجهم بنواحه . الا ان قاسم كان يزيد من تشبثه به ، والمحافظة عليه ، وقد اضطر اخيراً لبناء وكر صغير له في مقشاة البطيخ ، ليريح البيت منه من ناحية ، وليعوده على حراسة المقشاة من بنات آوى التي تكثر من غزواتها على المقاثي في موسم البطيخ . وكانت هذه اول مرة يجد فيها سمور نفسه امام تجربة حاسمة في حياته ، امام مسؤولية فرضت عليه ولا مفر له من القيام بها . فالى جانب انه اصبح مكلفاً بحراسة المقشاة، فلا بد له من الدفاع عن نفسه في هذه العزلة عن قاسم الذي تعود ان يشعر بالثقة المطلقة الى جانبه والتصدي لاي عدو من كلاب القرية او اهلها . اما هذه المرة فلا بد له من التصدي وحده والقتال وحده اذا ما تعرض لهجوم بنات آوى على المقشاة او عليه وربما تعرض لهجوم الذئاب ايضاً او لهجوم احد الضباع الضارية في الليل .

كانت تجربة قاسية ذاق فيها سمور مرارة الوحدة في الليالي الحالكة ، وهول الخوف الذي كان يستولي عليه في الليالي الاولى، وهو يتوقع هجوم بنات آوى عليه في كل لحظة إذ كانت لا تنفك عن العواء من حوله طول الليل . ثم قسوة حربه معها حين بدأت تهاجمه لعدة ليال متتالية ، فيستميت في قتالها دفاعاً عن مقشاة قاسم وعن نفسه . وفي كل مرة كان يصبر على الم الجراح التي كانت تتركها بنات آوى في جسمه ، الى ان يأتي قاسم في الصباح مما جعله لا يكترث

facebook.com/the.Boooks

بجراحه في النهاية ، لخروجه منتصراً عليها في كل مرة، حتى انها لم تعد تجسر على غزو المقشاة او الاقتراب منها .

ومع انه كان يعرف بغريزته ان هـذه التجربة وان كانت الاولى فأنها لن تكون الاخيرة وانه سيمر بتجارب اخـرى غيرها . إلا انـه لم يكن يتوقع ان تكون تجربته الثانية مـع الحياة بتلك القسوة التي كانت عليها وبنفس السرعة والتوالي !

كانت وطأة الاحتلال الانجليزي آنذاك على وشك الانتهاء من البلاد والجـلاء عنها . إلا انهـا كانت اشد واقسى من اي وقت مضى ، إلا انها كانت لما سيخلفه الاحتلال من مشاكـل بعد انتهائه ، ولم يقتصر اضطهاد الجنود الانجليز عـلى اهـالي المدن وحدهم، بل تعداه الى جميـع القرى، لا سيما تلك القرى التي كانت تجاور معسكرات الاحتلال وعلى الاخص قرى مرج بن عامر .ولما كانت قرية مقيبلة لا تبعد عن احد المعسكرات – بل ومن أضخمها – غير مئات من الأمتار، فقد كانت هدفاً مباشراً لاضطهاد الجنود الانجليز ، سواء كان ذلك في النهار أو في الليل ، حيث كانت جميع بيوت القرية عرضة للتفتيش في أي وقت من الليل بحثاً عن السلاح والمناهضين للاحتلال الذين كانوا يغيرون في الليل على مخازن الأسلحة في المعسكر .

وكان لا بد لبيت بو قاسم من أن يكون هدفاً للتفتيش ذات ليلة . وقد حدث بالفعل أن أتهم بو قاسم باقتناء بندقية، فداهمه الجنود في بيته عند منتصف الليل ، لاعتقاله وأجراء

facebook.com/the.Boooks

التفتيش . وقد تصدى لهم سمور عند باب الدار ، ولم يسمح لهم بالتقدم شبراً واحداً ، رغم تهديد أحد الجنود له باطلاق الرصاص عليه حتى خرج اليه قاسم ورده عنهم . وحدث بعد أن فرغ الجنود من التفيش دون أن يعثروا على شيء ، ان راحوا يحاورون « بو قاسم » الذي رفض الانصياع لأوامرهم والذهاب معهم . فدفع ذلك أحد الجنود لضربه بمؤخرة بندقيته . فما ان رأى سمور ذلك حتى قفز بين كتفي الجندي ورماه أرضاً ، وراح يعاركه بكل قوته ، ولم يتركه حتى أخذه بو قاسم بين يديه بالقوة ، وأبعده عنهم خشية أن يطلق الجنود النار عليه .

وفي اليوم التالي ، تلقى بو قاسم أمراً بسجن سمور لمدة ستة أشهر ، وأن عليه احضاره مكمما إلى مركز الشرطة في مدينة جنين خلال اثنتي عشر ساعة، وإذا لم يحضره فسيكون معرضاً هو الآخر للسجن .

كاد بو قاسم ينسى ما شعر به من ألم لفراق سمور كل هذه المدة ، لشدة ما تملكه من دهشة لأمر السجن الذي بين يديه.. أمر موقع يختم الدولة .. بالناج البريطاني ؛ وبسجن كلب ! الله عليك يا سمور .. والله إنك أحسن من عشرين شنب ، باطل باطل هي وصلت لهون؟ بريطانيا العظمى أصبحت تصدر الأوامر بالسجن حتى على الكلاب !!.

لم يتمالك بو قاسم نفسه أمام هذا النبأ الغريب . فراح

facebook.com/the.Boooks

ينادي على أم قاسم وعلى قاسم ، بل وعلى جميع أبنائه وجيرانه ، وهو يلوح بالأمر ويطلعهم عليه . ولم تكن غرابة النبأ بالنسبة لقاسم لتنسيه مدى ما ينطوي عليه هذا النبأ من ظلم لسمور . فذهب من توه لمختار القرية يحتج على هذا التعسف. وطلب اليه التدخل في الأمر لمنع السلطات من تنفيذ القرار ، أو سجنه هو بدلا منه . ولم تمض ساعة واحدة ، حتى كان الخبر قد راج بين جميع أهالي القرية الذين أخذوا يتواردون على بيت بو قاسم ، ليروا ذلك الأمر الغريب ، القاضي بسجن كلب ، وليشاركوا بو قاسم غضبه على سجن سمور . ثم انتقلوا جميعهم إلى المختار يحتجون على هذا الجور ، الذي لحق به من السلطات، طالبين اليه بصفته مختار البلد، ان يوقع على عريضة احتجاج كانوا قد أعدوها ، وأن يرافقهم إلى مركز الشرطة لتقديمها .

لم تستمع الشرطة لاحتجاج بو قاسم، كما لم تستمع لاحتجاج أهل القرية . ورغم ما بذله المختار من جهد ، بضغط من أهالي القرية لوقف التنفيذ لا سيما أهل الحارة الغربية ، الذين كانوا يعتبرون سمور حارسهم الوحيد من أبناء الليل ، وحارس مواشيهم ، إلا أنه كان على سمور أن يقضي مدة سجنه . وكان بو قاسم وقاسم يزورانه مرة كل اسبوعين ، ومما كان يثير غضب السلطات زيارة أهل القرية له ، وقد أصبح حديث القرى المجاورة ، بل وتناقلت أخبار سجنه الصحف ، بعد

facebook.com/the.Boooks

ان تسبب سجنه بمقاطعة أهل القرية للجنود الانجليز ، وانضمام أهل القرية المجاورة لهم في ذلك ، مما دعا مدير الشرطة وقائد القوات الانجليزية في المنطقة ، ان يحققا بنفسيهما في تفاقم عداء القرويين للجنود الانجليز والشرطة في مرج بن عامر . ومن ثم الافراج عنه قبل انتهاء المدة . وقد استقبل سمور لدى عودته في القرية ، استقبال الأبطال المناضلين ضد الاحتلال .

كان السجن قد زاد في نفس سمور ، كراهيته لكل بزة عسكرية ، حتى أنه لم يعد يتورع عن مهاجمة كل جندي أو شرطي يمر في أطراف القرية ، لا سيما الدوريات الليلية ، مما حمل قاسم على تقييده خوفاً عليه من ان ينتقم منه أحد الجنود ويرميه بالرصاص ذات يوم .

ما كاد يتم جلاء جيش الاحتلال البريطاني عن فلسطين، حتى كانت حوادث ما بعد التقسيم بين العرب واليهود في البلاد على أشدها . ودخلت الجيوش العربية بعدها لتحل محلها ، كي تقف في وجه القوات اليهودية ، وتمنع تقدمها الى بقية المناطق من البلاد . وكان من بين هذه الجيوش فرق حطت في مرج بن عامر ، الذي أصبحت قراه تتعرض لهجمات الجيش اليهودي المتتالية ، وما كادت أحدى هذه الفرق تدخل القرية حتى وقف سمور حائراً ، لرؤية بو قاسم بل وجميع الناس في القرية يهرعون للقاء جنودها ، الذين لم يكونوا بالنسبة له ، أكثر من جنود يرتدون اللباس العسكري ، الذي يناصبه

facebook.com/the.Boooks

العداء ، ويكن له في نفسه أعمق الحقد ، وعليه ان يقاوم وجود هؤلاء أياً كانوا ، فتجاهل بادىء الأمر وجودهم ، كي لا يثير بعدائه لهم غضب أهـــل القرية ، الذين كان يراهم يستقبلونهم بحفاوة بالغة ، بل ويشاركونهم حراستهم في الليل .

وأصبح وجود هؤلاء الجنود في القرية يثير الشكوك في نفس سمور المتمردة ، وإذا ما كان عليه ان يكتفي بموقفه المتجاهل منهم ، بعد أن رأى ان علاقتهم بأهل القرية أصبح يسودها الفتور وعدم الرضا ، وان كل تلك الحفاوة التي كانوا يستقبلونهم بها ، أخذت تتحول إلى جفاء متبادل . بعد أن راح أهل القرية يقومون بحراسة القرية وحدهم ساهرين في الخنادق التي اجبرهم الجنود على حفرها ، بينما يظل الجنـــود داخل البيوت التي أخرجوا أهلها منهـــا ليحلوا محلهم . ولا يعملون شيئاً سوى تفقدهم في الخنادق ، وكثيراً مـــا كان يلاحظ أن مشاجرات عنيفة تحدث بين الحراس من أهل القرية والجنـــود ، إلا انه لم يكن يدرك ما هي الأسباب لنشوب تلك المشاجرات .

وحدث ذات يوم ، أن أفاق سمور من غفوته في الظهيرة ، على صوت قاسم الغاضب ، فخف متوثباً ليستطلع الخبر ، وإذا بقاسم يقاوم بعض الجنود ، الذين كانوا يحاولون جره بالقوة ، بينما راح أحدهم يدفعه بعقب بندقيته ، ومرت أمام ناظريه صورة الجنود الانجليز يجرون بوقاسم في ذلك اليوم

facebook.com/the.Boooks

المشؤوم ، الذي كان سبباً في سجنه. فوثب سمور بكل ما في نفسه من حقد وكراهية مكبوتـــة ، على الجندي ، يغرس أنيابه في لحمه، ولم يخلصه غير قاسم وبوقاسم الذي كان قد عاد لتوه من الحقول ، وما كادا يبعدانه عنه ، حتى أطلق عليه جندي آخر الرصاص، ففر سمور إلى الكروم يحمل جرحه .. بينما نشبت معركة بالرصاص بين الجنود ، وبين بعض شباب القرية الذين ما كادوا يسمعون خبر ضرب قاسم ، وإطلاق الرصاص على سمور ، حتى ثارت ثائرتهم ، وقرروا التخلص من هؤلاء الجنود ، الذين أصبحوا عبئاً ثقيلاً على أهل القرية كلها، بدلاً من أن يدافعوا عنهم . ولم تتوقف المعركة بينهم ، التي راح ضحيتها عدد من شباب القرية والجنود ، إلا بعد أن دخلت القرية قوات أخرى منهم فأوقفتها .

بقي سمور مختفياً بين الكروم ، إلى أن شفي جرحه ، فقرر الانتقام لنفسه منهم ، جاعلاً من الكروم مأوى له ، يبقى فيها طيلة النهار ، حيث كان يأتيه اخوة قاسم الصغار بالطعام والماء ثم يأتي في الليل إلى القرية يتعقبهم ، فما يكاد يعثر على أحدهم حتى يفاجئه ، ويعمل فيه أسنانه ، ولا يتركه حتى يدميه .. إلى أن تملك الرعب هؤلاء الجنود ، وشاع بينهم أن شيطاناً يسكن جسد هذا الكلب ، وما عليهم إلا أن يتركوا القرية ويلجأوا إلى الخيام بعيداً عنها ، وإلا قضي عليهم .

facebook.com/the.Boooks

تقدمت القوات اليهودية من قرية مقبلة ، بعد أن احتلت قرية زرعين الواقعة على بعد عدة أميال إلى الشمال منها . فراح أهالي مقبلة والقرى المجاورة يحزمون أمتعتهم ويرحلون إلى الجنوب مع المهاجرين من قرية زرعين المحتلة . بعد أن تركتها فرق الجيش العربي التي جاءت تدافع عنها ، دون أية مقاومة وانسحبت .

لم يبق في القرية بعد ان تركها اهلها ، غير قاسم الذي راح يتبع سمور ، باحثاً عنه بين الكروم ، بعد ان ابى الرحيل معهم ، والقوات اليهودية تتقدم من القرية . وكان لا بد لقاسم من اللجوء الى الحيلة كي يقبض عليه ، فارتمى على الارض وراح يصرخ صرخاب متألمة ، واذا بسمور يقترب منه مسرعاً ، وراح يحوم حوله متحفزاً ، لصد اي هجوم قد يتعرض له . فغافله قاسم وقبض عليه ، ثم جره خلفه ، الى ان وصل القرية ووضعه في كيس من الخيش ، كي لا يرى الطريق ويفر ثانية ، ثم وضعه على الحمار امامه ، وسمور يعوي متألماً ، محاولاً الافلات من قيده . الى ان لحق قاسم بأهل القرية الذين حطوا الرحال بعد يوم كامل من المسير ، بين كروم الزيتون بالقرب من قرية عنزه في قضاء نابلس .

لم تمض عدة اسابيع على هجرة سمور ، وتشرده بين كروم الزيتون مع عائلة بو قاسم ، حتى اختفى ذات ليلة ، فراح بو قاسم وابناؤه يطوفون القرى والجبال المحيطة ، يبحثون

facebook.com/the.Boooks

عنه ، عل احد الرعاة قـــد قبض عليه واحتجزه ، إلا انهم كانوا يعودون كل يوم ، لا يحملون غير الخيبة والاسى .

وذات يوم بينما كان قاسم يبحث عنه لوحده بعد ان يئس الآخرون من العثور عليه ، اخبره احـــد الرعاة ، انه رآه متوجهاً نحو الشمال ، فتأكد قاسم من انه عاد الى القرية ثانية، وهذا ما كان يخشاه منذ البداية ، لتعلق سمور بازواج الحمام التي تركوها خلفهم في القرية ، ولتعلقه بالبيت والكروم ، فحرص على ان يقيده دائماً ، ولا يدري كيف استطاع ان يكسر قيده ويفر . ولم يتمالك نفسه عنالبكاء على هذه النهاية التي انتهى اليها سمور، وقد راودته الشكوك بأنه لن يراه أبداً.

ما كاد بو قاسم يرى قاسم يدخل الخيام منكسا رأسه ، حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، فانضم اليهما جميع أهلالبيت لا سيما الصغار ، ثم ساد الخيمة صمت حزين ، قطعه بو قاسم صافقا كفا بكف :

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. رجع سمور عالبلد يا قاسم.

ورد قاسم بصوت كسير :

– على الأقل رجع يموت في الدار يابا .. مش مثلنا ،نموت مهججين من الجوع والعطش ، لا بيت ولا مأوى .

———

facebook.com/the.Boooks

... وبعد!

... هذه القصص .. عن فلسطين

بقلم : محمد دكروب

★

« إذا كنت تريد أن تقول الحقيقة ، فلا بدّ لك من أن تختار المنفى !.. إنك تعيش هنا في قبر !.. شعبك كله هنا يعيش في قبر ، مظلم ، قاتم !.. وطنك هذا الذي لك وليس لك ، لماذا لا تهجره ؟ لمـــاذا ؟. إنهم يفتحون لكم الطريق ويساعدونكم على ذلك ، وإلى أي مكان تريدون !..»

... هذا ما تقوله ريتا لعشيقها العربي أمين ، في قصة « الشارع الأصفر » لتوفيق فياض .

ولكن أمين يقول غير هذا ، وفلاحو توفيق فياض ، في مجموعته القصصية هذه، يقولون غيرهذا ... يصرون على البقاء في أرضهم ووطنهم .. وهم ، رغـــم مختلف أشـكال

facebook.com/the.Boooks

الارهاب والقمع ومحـــاولات السحق الفكري والجسدي ، يعلنون الحقيقة ، بمختلف أشكال القول والكفاح ، يصرخون بالحقيقة ، يمارسونها مجابهة ، ومقاومة ، وتعرّضاً للتعذيب ، وموتاً في السجون أو تحت جنازير الدبابات ...

... « لأنني إذا هجرتكِ يوماً ، يا أمي ، – ويا أرضي – تهجرني روحي . وإذا نسيتك ، ينساني الفرح » .

هذه الصرخة ، التي تعلن التشبّث بـــأرض الوطن ، والإصرار على الحياة فوق هذه الأرض ، ولو بالموت ، هي النغمة الأساسية في مجموعة توفيق فياض هذه .. وهي كذلك النغمة الأساسية للأدب الفلسطيني ، داخل فلسطين ، منـــذ مؤامرات التهجـــير ، ومأساة ١٩٤٨ ، والسحق القومي ، واغتصاب الأراضي ، وعمليات القمع الدامي ، والمذابـح ، وتحويل القرى العربية داخل اسرائيل إلى معسكرات اعتقال نازية وأفران هائلة لحرق هـذا « الجنس العربي اللعين » الذي يقاوم النار بالصمود ، وبالمقاومة ، وبالنار .

وقد استطاع الأدب العربي في فلسطين ، الذي تفجّر من ظلام أطول عملية تعذيب جماعية عاناها شعب في التاريـخ ، أن يقول الحقيقة ، أن يصرخ بالحقيقة . ومثل المياه المحبوسة التي تتململ ، وتسري ، وتدور في الأعماق حول الصخور ، وتتسلّل من بينها ، وتزيـح بعضها من طريقها ، وتتجمّع ، وتنضغط ، ثم تتفجّر منطلقة نحو الأعالي ، من أعماق الأرض

facebook.com/the.Boooks

والصخر والتراب ... تفجّرت ينـــابيع الأدب العربي في فلسطين، من أعماق العذاب والضغط والارهاب، تقول الحقيقة لشعبها، وللعالم.

تقولها مباشرة أحياناً، فتُصادَر، ويذهب الكتّاب القائلون إلى السجون.. وتقولها بالرمز في غالب الأحيان، فيذهب القائلون كذلك إلى السجون، أو الإقامات الإجبارية، ولكن الرمز، الذي لا يمكن اعتقاله، يذهب إلى قلوب البشر، ويخترق كل الحواجز، يخترق الحدود والأسلاك، والمستقبل.

* * *

... وبالرمز، خصوصاً، يقول توفيق فياض الحقيقة عن فلسطين، الناس والأرض والعذاب، البقـــاء والإصرار على البقاء، مع الوحش وضده.

ولا بد لاستيعاب العمق الكفاحي لقصص توفيق فياض، من التقاط هذه الأبعاد الرمزية لأقاصيصه التي تبدو وكأنها مجرّد أقاصيص تصور الحياة اليومية للناس العرب في فلسطين، وخارج فلسطين:

● فالذئاب الشرسة التي تهاجم أغنام القرية، – في قصة «الراعي حمدان» – وتتـكاثر باستمرار، ويكافحها الراعي حمـــدان، وغيره، بضراوة ... هذه الذئاب تشبه، في الظاهر، مختلف الذئاب التي تهاجم مختلف القرى والأغنام في

facebook.com/the.Boooks

مختلف بلدان العالم .. ولكن هذه الذئاب الغريبة الضارية ، التي تبدأ بالظهور حول القرية، تخيف الناس والأغنام ، وتدفع الكثير من أهل هذه القرية إلى النزوح عنها هرباً من الموت ، والتي تتكاثر وتتكاثر وتطبق على القرية كلعنة الجحيم ، تمزّق الناس والأغنام .. تتخذ في قصة توفيق فياض ، الكاتب الفلسطيني ، بُعدها الرمزي – الواضح – فإذا هي ذئاب من نوع آخر ، تطبق على فلسطين تمزّقها ، تشرّد أهلها ، وتستولي عليها مثخنة بالجراح .

وهنا تكتسب أقوال حمدان لصديقه ناجي الذي قرر أن ينزح عن القرية ، كل عمقها الكفاحي ، وصمود التحدي ، والتشبّث بالجذور :

–« قال وين يا ناجي بالخير.. قال مشرّق عالغور !. قال في ذياب في الجبال قال !.. الله عليك يا زمان ، تعيش يا حمدان وتشوف . باطل .. باطل .. والله ماني هاجرك يا هالبلد ، ولو بفطس في زقاقك وما بلاقي مين يدفنّي » .

ويبقى حمدان ، بعد لعنة الجحيم هذه ، في قريته الممزقة ، يعاني كل مرارة الهزيمة ، والوحشة ، وانتظار عودة النازحين..

● .. وإلى هؤلاء النازحين..إلى « أعمدة الدخان المتعالية من مواقد النازحين عنها » .. تنظر أم الخير ، وهي تحتضر وتعاني من السم الذي بخّته فيها الأفعى .. فإذا عرفتَ من هي الأفعى ، وما ترمز اليه في قصة « أم الخير » ، فانك

facebook.com/the.Boooks

لا بد تعرف كذلك ان أم الخير هي فلسطين نفسها ، لا يدل عليها فقط المضمون العام للقصة ، بل كذلك تلك الأوصاف الرحبة التي يرسمها لها توفيق فياض . وإذا فهمنا سرّ تلك الوحدة بين الأرض والحبيبة ، والأم والوطن ، في شعر محمود درويش وسميح القاسم ، فاننا نفهم كذلك كيف « كان بيت أم الخير يضمّ جميع أرض القرية وجبالها ، وقنطرتاه تتسعان وتتسعان حتى تضما بينهما كل بلادنا .. صيفها وخريفها ، شتاءها وربيعها ، فتاة متجددة الصبا .. تماماً كأم الخير نفسها » ...

الأفعى بخّت السم في جسد أم الخير .. تحوّل جسدها إلى قروح تنزّ .. وأخذت أم الخير تذوي .. وتبقى بسمتها تشرق في وجهها المقروح ، عندما يتحول جسمها إلى جذع شجرة عجوز جافة . ولكن حسن الحرّاث ، الذي يبقى على حبها ، وتنتقل اليه عدوى القروح ، يروي جذع الشجرة اليابسة بدماء قروحه ، فينبت في الشجرة برعمان أخضران « يتفتحان ويكبران يوماً بعد يوم ، ويتفرعان ، ومن أطرافهما كانت تسقط عند كل صباح دمعتان على قروح حسن ، فتشفى عند كل صباح قرحتان » ..

الأم وأبناؤها : هي الضحية ، وهم يفدونها بالدماء ، فتشفي هي قروحهم ... وتكبر الشجرة وتكبر « حتى تحتضن بأغصانها المخضرّة بيوت القرية كلها » ...

وبكلام اكثر وضوحاً : فلسطين التي تعاني من سم الأفعى

facebook.com/the.Boooks

الصهيونية ، والشعب الفلسطيني الذي نهض ، وحمل السلاح ، يفدي أرضه بدمه .. وأرضه بدورها تهبه الأمل الذي ينمو وينمو كلما تصاعدت حركة الكفاح .

* * *

ولا نمضي في العرض والتفسير اكثر من هذا . المهم ، في هذا الضوء ، ان نرى هذا الواقع المدهش : ارتباط القصص بالأرض ، وبالمأساة ، بحيث ان محاولة استيعاب القصة في غير مناخها الأصيل ، قد يقضي على وهج هذه القصص ويخفف من حدّة فعلها الفني والكفاحي .. بمعنى ان فهم هـــذه القصص مرتبط باسم فلسطين، وان الواقع الخاص لهذه الأرض وهؤلاء الناس ، لم يعد فقط جزءاً من موضوع القصص ومضمونهـا ، بل كذلك جزءاً من عملية الاستيعاب الفني لدى القاريء: فهي في فلسطين تشدّ الانسان العربي الى أرضه ، وخارج فلسطين تساهم في تعبئة الشعب الفلسطيني لانقاذ أرضه من عـــار الاغتصاب ، وفي العالم تشد أنظار العالم الى هذه البقعة الدامية من الأرض التي تنزف منذ عشرات السنين ، والتي تجري فوقها عمليـــات إبادة ، فكرية وقومية وجسدية ، ضد شعبها الفلسطيني العربي نفسه ، عمليات شرسة هي امتداد وتطوير « وعصرنة » لعمليات الابادة النازية ضد مختلف الشعوب .

من هنا تكتسب هذه القصص مضمونها الكفاحي والرمزي

facebook.com/the.Boooks

معاً ، وتكتسب صفتها كجزء من معركة المقاومة بقدر ما هي جزء من الأرض نفسها ومن الشعب .

وبهذه القصص ، بعد روايته « المشوهون » ومسرحيته « بيت الجنون » ، استطاع توفيق فياض أن يسهم في نقل النثر العربي في فلسطين الى مرحلة فنية أعلى كان يبدو ان الشعر الفلسطيني وحده هو الذي بلغها .

* * *

فالواقع ان القصة العربية القصيرة في فلسطين كانت لا تزال في مرحلة السرد العادي للحوادث ، همّها إيصال مضمون معين إلى القاريء ، حتى قبل أن تبلغ مستوى النضج الفني . ولكن استمرار التجارب ، وانصهارها اليومي بنار المعركة ، وضرورات الوصول الأعمق إلى القاريء ، أدى إلى هذا التقدم المستمر للنثر العربي على الصعيد الفني ، وأدى إلى نوع من القفزة في مسرحية « بيت الجنون » خصوصاً ، لتوفيق فياض نفسه ، التي استفادت من مختلف التجارب المسرحية المعاصرة ، والتي تشكّل وثيقة اتهام فنية وفكرية لهذا المجتمع المصطنع في إسرائيل الذي يُفرغ الانسان من جوهره فيحوّله إلى ذئب مفترس ، ولص ، ومجنون . ثم جاءت مجموعة « الشارع الأصفر » هذه تحمل الكثير من المكتسبات الفنية للقصة الفلسطينية في الداخل ، فإذا هي تنقل القصة من مرحلة السرد

facebook.com/the.Boooks

البسيط المباشر ، إلى تعدد الأبعاد في القصة ، وتوحّد الرمز بالحدث كما تتوحد الأرض بالانسان . وإذا اللغة التي يستخدمها توفيق فياض، في كل قصة، تنبع من طبيعة مناخ الحدث نفسه، فهي أقرب إلى اللهجة الشعبية عندما يكون أبطالها فلاحون ، وهي فصيحة معقدة عندما يكون أبطالها من مثقفي المدن . وهي ، حتى في المنولوج الداخلي للشخصيات ، تلتزم بمناخ الشخصيات نفسها . وعلى صعيد التركيب الفني كذلك ، فان القصة تكتسب تعقّدها المعاصر عندما تصور معاناة مكافح مثقف يصارع اليأس وضرورات الاستمرار – كما في قصة « الشارع الأصفر » نفسها – وهي تكتسب وضوح القصّ عندما تصور فلاحا بسيطاً ، وصامداً ، يأبى أن يبيع فرسه التي تشكل عنده رمز الارتباط بالأرض والأحتفاظ بها كما في قصة « الفرس » – ثم هي تكتسب الغموض الأسطوري وجماله وغرابته والامكانات المتمدّدة لتفسيره عندما يكون شخصياتها ذلك البعد الرمزي الغني – كما في قصة « أم الخير » مثلاً ، وقصة « الراعي حمدان » .

وهكذا ، بعد هذه القصص ، لم يعد همّ القطاص يتركّز في مجرّد إيصال أفكاره إلى قاريء معين ، بل همّه الأساسي إبداع عمل فني يوصل المضمون بشكل أعمق وأكثر فاعلية إلى كل القراء ، على مختلف المستويات .

وإذا كانت أكثر أقاصيص توفيق فياض قد قاربت هذا

facebook.com/the.Boooks

الهدف ، بمـــا تحمله من اصالة ، وبما اكتسبه كاتبها من وعي فني ، فان رواية « سداسية الايام الستة » القصصية لإميـــل حبيبي ، قـد سجلت قفزة رائعة كبرى ليس فقط على صعيد القصة داخل فلسطين ، بل على صعيد القصة الجديدة في مختلف البلدان العربية ،واستطاعت أن تصور مأساة الشعب الفلسطيني عبر نغم مأساوي ، وتنويع بالألوان ، والأسلوب ، والتعقيد والبساطة معاً ، ومتانة التركيب الفني، وجمالية هذا التركيب، مما يجعل هذه « السداسية » نوعاً تركيبياً جديداً في القصة العربية ، بالاضافـــة إلى كونها حتى الآن أجمل تصوير فني لمأساة تمزّق هذا الشعب ومعاناته وصموده وكفاحه .

* * *

وبهـــذا ، نستطيـع القول – بعد « الشارع الأصفر » و« سداسية الأيام الستة » – ان القصة العربية في فلسطين المحتلة ، أخذت تؤدي ، على الصعيد الفني ، الدور الكفاحي نفسه الذي يؤديه شعر الأرض المحتلة ، وتشكّل في أدبنـــا العربي الحديث ، جزءاً عزيزاً وهامـــاً وأساسياً من الأدب الشجاع ، فنياً وكفاحياً ، الذي عرف ويعرف كيف يفجّر النور والأمل من أعماق اليأس والظلمات ، والذي يعبّر عن الإيمان بالنصر، والإصرار عليه، من خلال أعنف معاناة لعوامل الهزيمة واليأس والظلمات .

facebook.com/the.Boooks

إسمع كيف يستعير توفيق فياض، نشيد حوريس القديم ، ويجعله معاصراً على لسان سامي، وهو البطل الوحيد لمسرحيته « بيت الجنون » :

« إنهض، إنهض يا أوزيريس !.. أنا ولدك
حوريس ... جئت أعيد إليك الحياة ..
جئت أجمع عظامك .. وأصل أعضاءك .. أنا
حوريس الذي تكون أباه . . حوريس
يعطيك عيوناً لترى ، وآذاناً لتسمع ،
وأقداماً لتسير ، وسواعد لتعمل .. ها هي
ذي أعضاؤك صحيحة ، وجسدك ينمو ،
ودماؤك تدبّ في عروقك .. ان لك دائماً
قلبك الحقيقي ، قلبك الماضي .. فانهض ،
انهض يا اوزيريس.. يا اوزيريس انهض! »...

... ويأتي الرد على هذا الدعاء الثوري، في نشيد الأطفال العرب ، الذين يغنّون كل صباح ، كما جاء في قصة « الشارع الأصفر » ، هذه الأغنية الرائعة :

« وعندما تقرع الأجراس في المساء
ولا بدّ أن تقرع !
سأعود اليكِ سريعاً

facebook.com/the.Boooks

وآوي الى صدركِ
لكي لا أفارقك الى الأبد .
اقسم لن أفعل .
لأنني إذا هجرتكِ يوماً .
تهجرني روحي .
وإذا نسيتك .
ينساني الفرح » .

* * *

... وها قد أخذت الأجراس تقرع للابطال ...

وأوزيريس ينهض ... والشعب المزق يجمع أشلاءه ، ويقدّم للأرض المقدسة ، الضحايا والدماء ، الفدائيون حاملو السلاح والغضب ، وحاملو القصص والأشعار ، رايات مخضبة تحمل كل تراث المأساة ، وتحمل ثورة شعب كامل ضد مأساته، وضد كل أسبابها .

facebook.com/the.Boooks

الشارع الأصفر

الفعل التاريخي الذي تدعو اليه هذه المجموعة هو فعل انساني في الاساس . فالتكوم حول الارض الفلسطينية لا يجد معناه الحقيقي بمعزل عن الانسان الفلسطيني الذي يصنع هذه الارض بجراحه وعرقه . هكذا لا يسقط فياض في التعليمية والمباشرة . انه يبحث عن الانسان فيما هو يبحث عن الارض . وصوت الانسان ياتي من جراح ام الخير وتاوهات حمدان الراعي ومحبة قاسم للكلب ودخول امين سعد في البحر الجماهيري الذي يصير وقع اقدامه على الارض نشيدا لهذه الارض .

ان شهادة « الشارع الأصفر » شهادة مليئة بالغنى والدلالات . وتوفيق فياض استطاع بتجربة فنية متواضعة ان ينقلنا الى اعماق الجرح الفلسطيني . الى اعماق وجدا
الذين بقوا في الغيتو العرب
يقاتلون ويموتون .

الياس الخور

وبهذا ، نستطيع القول
بعد « الشارع الاصفر
و « سداسية الأيام الستة »
ان القصة العربية في فلسطي
المحتلة ، اخذت تؤدي ، عل
الصعيد الفني ، الدور الكفاح
نفسه الذي يؤديه شعر الأرض
المحتلة ، وتشكل في أدبنا العرب
الحديث ، جزءا عزيزا وهام
وأساسيا من الأدب الشجاع
فنيا وكفاحيا ، الذي عرف
ويعرف كيف يفجر النور والأمل
من أعماق اليأس والظلمات
والذي يعبر عن الايمان بالنصر
والاصرار عليه ، من خلال أعنف
معاناة لعوامل الهزيمة واليأس
والظلمات .

محمد دكروب

رسم الغلاف : حلمي التو

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة . ص.ب : ٥٤٦٠/١١
بناية برج شهاب . تلة الخياط . ص.ب : ١٩٥١١٩
برقيا : موكيالي . بيروت

facebook.com/the.Boooks

الثمن ٤ ل.ل او ما يعادلها